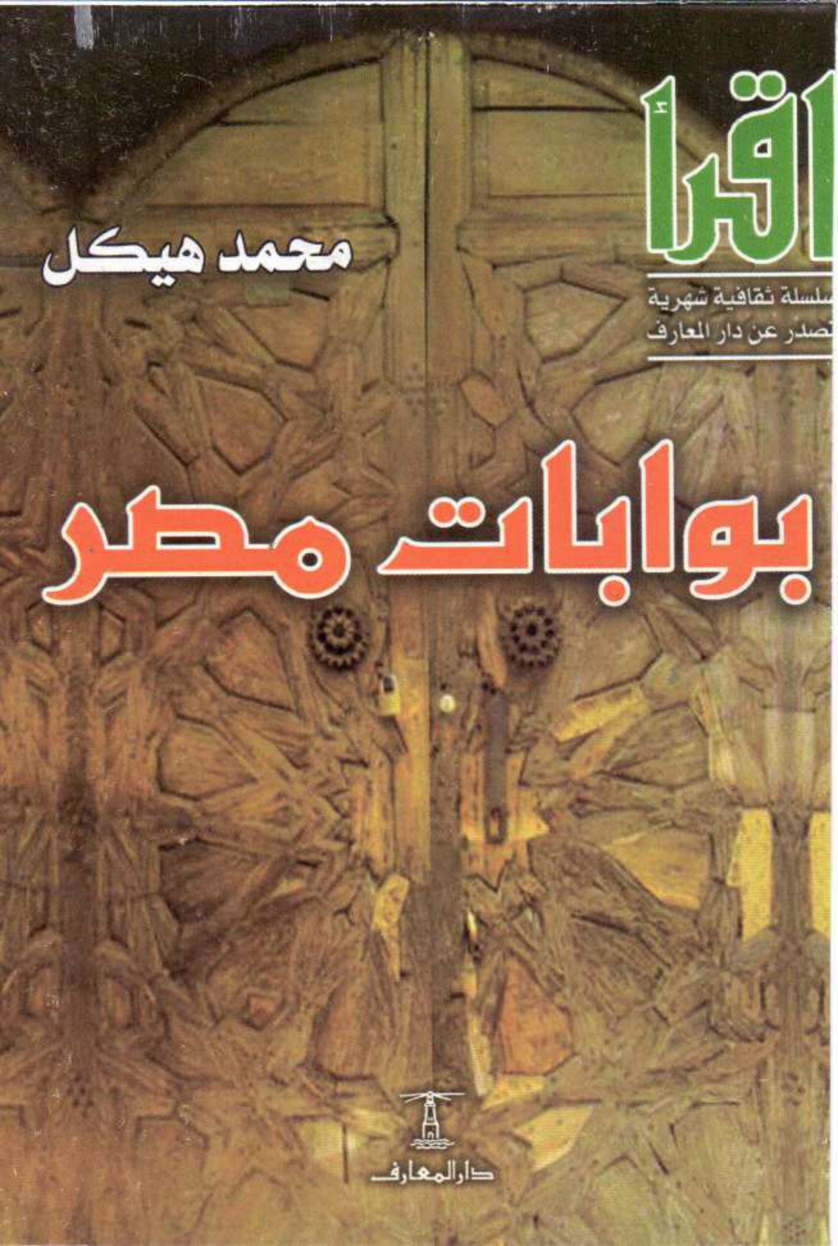


اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف
محمد هيكل
بوابات مصر
دار المعارف

الأرض ، النهر، البحر:
ومن ثم البشر
كونوا شخصية مصر، وشيدوا حضارة هائلة عبر آلاف السنين، وصار لكل إقليم منها عاداته وتقاليده وموروثه.. وقد انصهرت كل هذه الخصائص فى خاصية واحدة شكلت شخصية مصر، المتدفقة، المؤثرة، الملهمة.

وهذا الكتاب «بوابات مصر» محاولة للغوص فى الأماكن، فى الأقاليم، فى المدن التى احتلت عبر التاريخ المصرى مكانا، نظرا لجغرافيتها، فمن رشيد كانت الغزوات الأجنبية، ورشيد كما يقول العم جمال حمدان: صدرت الخام الذى انتقل عبر النيل إلى البحر المتوسط، الذى تم استيراده مرة أخرى «مصنعا وغزاة»!

والأقصر، مدينة الحياة والخلود، ومركز الحكم فى مصر القديمة سنوات عديدة، ومثلث حلايب وشلاتين، نقطة الانطلاقة المصرية إلى أفريقيا، والسويس، تاريخ فى الحرب والمقاومة والحضارة، والنوبة.. تساؤل هام، وإجابة واضحة، النوبة مصرية جغرافيا وتاريخا وعقلا وقلبا.

«بوابات مصر» سياحة فى قلب الوطن، وعقل التاريخ، وأحاسيس ووجدان التراث.



دار المعارف

٤٠٧٨٧١/٠١



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٧٢٣]



نائب رئيس التحرير
منى خشبة

مدير التحرير
كريمة متولى

مدير فنى
شريفة أبو سيف

تصميم الغلاف
شريف رضا

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هيكل ، محمد .
بوابات مصر .
محمد هيكل .
ـ ط ١ ـ القاهرة : دار المعارف ، ٢٠٠٨ .
١٦٨ ص ؛ ١٧ سم . (سلسلة اقرأ) .
تدمك ٢ ـ ٧١٩٧ ـ ٢ ـ ٠ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
١ ـ مصر ـ الجغرافيا .
أ ـ العنوان .

ديوى ٩١٦,٢

رقم الإيداع ١٣٦١٦ / ٢٠٠٨ 	 ١/٢٠٠٨/٤

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ - E-mail: maaref@idsc.net.eg

محمد هيكل

بوابات مصر



دار المعارف



إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

دار المعارف

أحلام شهرزاد - العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

إهداء

من أرض مصر الطيبة نبتنا
وعليها ارتوينا وعشنا
وإليها.. نعود لنُزرع فيها

إلى

بشر وحجر مصر
أهدي هذا الكتاب

محمد هيكل

مقدمة

عاش السـفر داخلى منذ نعومة أظفـارى، وكأن روح المغامرة التى نبتت داخلى، قد تمكنت منى، وشـجعنى فـى ذلك والدى «حسن» رحمة الله عليه، وعدم إعتراض أمى «دولت» .

كنت في الثانية عشرة من العمر، وبدأت في القيام ببعض مهام أبى العائلية، كنا نقطن مدينة دسـوق فى الخمسينات وأوائل الستينات من القـرن الماضى، وفى الأعياد،كان علىَّ السـفر إلى المنصورة إذا لم يتمكن أبى من زيارة عمتى التى كانت تقطنها، أسـتقل قطار الدلتا من دسـوق حتى طنطا، وأسـتقل عربـة حنطور تقلنى مع «الزيـارة» وهى مكونة من «سبتين» بهما ما يجود به الأهل للأهل، وأصل إلى محطة الأتوبيس، لأركـب الأتوبيس المتجه إلى المنصورة، ومن ثم أؤَجرُ حنطورا إلى حيث تعيش عمتى «أنصاف» .

واستعذبت الرحلات

وعندما هممت في شـتاء ١٩٦٥ بالسفر إلى الأقصر وأسوان فى رحلة الثانوية العامة، وكنا قد قطنا المنصورة وجدت دموع جدتى لأبى «بهية» تنسـال وهى تقول «يا ولدى هاتتغرب ليه وأنت لسه عودك أخضر» .. فترد أمى بحنان.. «يا خالتى محمد رايح مع زملائه ليتعلم» .!

هكذا.. رأت أمي في السفر سبع فوائد، ولأنها شخصية قوية ونافذة مع حنـان جارف، بدأت في زرع هذا الذى تملكنى، بل وتنميته، ربما كان بوعى الأم الفطرى التى تدفع وليدها لاكتساب الخبرات.

من هنا

بدأت رحلتى المحترفة مع السفر منذ الأيام الأولى للدراسة الجامعية.

...

وكنت قد انغرست في حب الوطن بوعي، والانحياز إلى الفقراء منه بلا تعصب، وبدأت أفهم أنني لكي انحاز إلى الوطن، لابد من التعرف إليه.. وجاء انحيازى المطلق إلى فقراء الوطن عقب حادثتين.

الأولى: وفاة أمى فى عام ١٩٦٩، وكنت حينذاك على جبهة القتال فى السويس، نغنى للوطن، ونحلم باستعادة ما سلب منا فى عام ١٩٦٧.

والثانية: عندما سافرت إلى المنوفية - لأول مرة - لأجرى تحقيقا صحفيا لمجلة الشباب العربى، الذى كان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت د. مفيد شهاب أمين شباب مصر. وكان التحقيق عن «محاولة سرقة أحلام ٣٣ أسرة كانت قد تمتعت بحقوق المواطنة والتملك لأول مرة فى قرية تسمى «الكوم الأحمر» بالقرب من مدينة أشمون.. لكن لسوء الحظ، كانت الحراسة قد فرضت بطريق الخطأ، وعندما تم تصحيح الخطأ لصالح أسرة طلمت الفرنساوى، كان على الفلاحين

أن يتركوا أرضهم، وقد تعرضت أنا والمصور صبرى الليثى للتهديد والرشوة، إما أن نسلم ما معنا من أوراق وصور، وإما أن نقتل، وفى حالة التسليم نحصل على عشرين ألف جنيه، مع ملاحظة أن أبى أعطانى جنيهين، وأعطتنى المجلة استمارات سفر! .. لم نسلم وهربنا فى الفجر، واكتملت القصة بالسفر إلى أشمون وشبين الكوم.. وقامت القيادة السياسية فى هذا الوقت بحل محترم، يحترم حقوق الفلاحين، وحقوق الملاك.. !»

هاتان الحادثتان حسما داخلى انحيازى إلى الفقراء، وإلى الحقيقة فى هذا الزمان.. وهذه المرحلة العمرية.

...

سكنى الوطن وفقراؤه

وعندما سافرت إلى الوادى الجديد، فى عام ١٩٧١ وقطنت قرية تسمى «بولاق» بالقرب من مدينة الخارجة، أرسلت خطابا لأبى أشرح له ظروف الغربة، وكانت إجابته لى فى رسالة واضحة تقول: «أى غربة تتحدث عنها، لقد زرت نصف مصر، وبقى لك النصف الثانى، أنت فى وطنك مادمت تشعر بالمواطنة الحقيقية، وأنت فى بلدك مادمت تؤدى واجبك تجاهه، يا ولدى.. مصر بلدك» .!!

أى أب جميل هذا الذى يزرع الأمل وحب الوطن فى نفس وقلب وعقل ابنه.

...

لقد تحول عشــق الســفر والانتماء إلى الفقراء والبحث عن الحقيقة ومساعدة زوجتي «سميرة» على الترحال، وعدم ممانعتها لهذا العشق.. إلى عشق لهذا الوطن.

عاشــق أنا لمصر نيلهـــا.. طينها.. رمالها.. والأكثر لناســـها أولئك الذين سكنوا مصر بلا مزايدة، أو تزايد.

وكانت رحلتـــي إلى الوطن، الناس، الحجر، هـــي - كما قال عمنا جمال حمدان - محاولة لرسم صورة مصر، ومصر بلا شك موضوع مثالى نظـــرا لما تتمتع به من طبيعة جغرافية واضحة الحدود، ولما تمتلكه من تاريـــخ حافل، كمـــا أننا الآن فى حاجة لفهم كامـــل لوجهتنا، كياننا، مكاننا، إمكانياتنا، ملكاتنا.

...

وبحثـــى فى أقاليم مصر.. مدنهـــا.. وقراها.. ونجوعها حلم يختلط بالحقيقة!

فـــإذا كان «فرويد» يرى فى الحلم دلالة علـــى الماضى، وكان «يونج» يرى فى الحلم دلالة على المستقبل، ورؤية المعنى فى التاريخ كما تقول «نعمات أحمد فؤاد» دلالة على المستقبل، فإن وعى التاريخ ليس اجترارا للماضى، إنها معاصرة واستجماع للانطلاق.

هذا ما يحدونى وأنا أتأمل خارطة الوطن، وبوابات مصر الحدودية.. وقد طاردنى لإكمال مشـــوارى مســـألتان الأولى وصف مصر، الذى أعده

مجموعة من الباحثين الفرنسيين قبل أكثر من مائتى عام، وقدمه مترجما لنا أحد دراويش مصر «زهير الشايب» والثانية حلم العم جمال حمدان في شخصية مصر.

أجوب أرض مصر

أبحث عن البشر والحجر.. عن الحقيقة

...

وإذا كان مايتردد من أن مصر هى «أرض المتناقضات» ربما تحت التأثير الشديد بين الفروق الاجتماعية الصارخة، أو بين خلود الآثار القديمة، وبساطة المسكن الفردى، أو بين الوادى والصحراء، حيث يتجاوران جنبا إلى جنب، كما تتجاور «الحياة والخلود».

لذلك.. فنحن أمام حالة نادرة من البلاد - كما يقول جمال حمدان - من حيث السمات والقسمات، وبالنظر إلى مصر تحديدا، فهي بالجغرافيا تقع فى إفريقيا، وبالتاريخ تنتمى إلى آسيا، وهى متوسطية دون مدارية بعروضها، وموسمية بمياهها وأصولها، هى فى الصحراء وليست منها، إنها واحة ضد - صحراوية بل ليست بواحة! وإنما شبه واحة، هى فرعونية بالجد، وعربية بالأب، ثم إنها بجسمها النهرى قوة بر، ولكن بسواحلها قوة بحر، وهى تضع بذلك قدما فى الأرض، وقدما فى الماء، وهى تمد يدا نحو الشمال، وأخرى نحو الجنوب.. وهى توشك أن تكون مركزا مشتركا لثلاث دوائر: «فى قلب الوطن العربى، ووسط العالم الإسلامى، وحجر الزاوية فى العالم الإفريقى.

وهـى بذلـك.. لا تجمع بين الأضـداد والمتناقضـات، وإنما تجمع بين أطراف غنيـة ومتعددة، وجوانب خصبة، ولعـل في هذه الموهبة الطبيعية، سـر بقائها وحيويتها، وهي حسب نظرية «هيجل» تجمع بين «التقرير والنقيض» في «تركيب متزن أصيل، ومن ثم تظهر «حقيقة» تتحول إلى «قانون» أن النيل ليس مانحا - فقط - للحياة في مصر، لكنه مـوزع للحياة على وجهها، لذلك فهو محور مصـر وعمودها الفقرى، ومصر بدورها هي نيلية التركيز والاستقطاب.

ويقرر د. جمال حمدان أن الشـعب المصرى منذ فجر التاريخ وحدة جنسية واحدة الأصل، متجانسة بقوة في الصفات، والملامح الجسمية، وقد ظل محافظا على هذا التجانس حتى اليوم، ويمكن الكشف عن هذه المسألة بسهولة من أن التماثيل الفرعونية منذ عصر الأهرامات، تتطابق وجوهها مع وجوهنا الحالية.

...

وأقـرر وأتفق مع د. نعمات فؤاد ما توصلت إليه، وما تحققت منه: أن مصر شـخصية ولعة بالولادة والتوليد، فيها نُزُوع إلى السلاسـة في همـس يبلغ في الخفوت قـوة التوثيق، فيها حنان فـى حنايا الأعمدة وعروق النبات ونمنمة في الفن، فإذا بالتشـابه والتشابك ليس بينهما فراق أو شقاق.

وهي.. شخصية فيها ثراء البساطة، وزهد الغنى، وجلال التواضع، وسكينة من مسالمة وسلام.

وهنا

على هذه الأرض:

نضج الإنسان والنضج وعى، والوعى سعى إنه تحريك القوى فى كل مكان.. وهذا ما حدث فى مصر.

إذ إن مصر تعلمت من الحجر الصبر، ومن النور البهجة، ومن الماء الرقة والعذوبة ومن السماء الرحمة، كما أن مصر أحبت الشمس ورأت فيها انتصارا على الظلمة، انتصار الحق على الباطل.

...

والثابت – على حد تعبير د. نعمات فؤاد – أن المصريين انبهروا بواديهم الأخضر، وسموه أكثر من اسم، فهى – أى مصر – عندهم «كيمة» أى «السمراء» و «تاكيمة» أى «الخمرية» و «تاوى» أى «الأرضين» و «ايدبوى» أى «الضفتين» .

وقالوا:

«ايره رع» أى «عين الشمس» . و «جاه نثرو» أى «عين رب الأرباب» و «إترتى» أى «ذات المحرابين» . و «باقة» أى «الزيتونة» الخضراء دائما.

وأطلق عليها الجيران من الكنعانيين والأشوريين والفينقيين والبابليين «مصرى ومشرى ومصرم ومصرايم ومصرين» واختتمها القرآن الكريم بـ «مصر» .

وتمتد كلمة «مصر» إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهناك من يقول: إن «كلمة مصر مركبة من كلمات ثلاث بمعنى «بلد أبناء الشمس» والكلمات الثلاث هي:

«ما» بمعنى موضع.

«سي» بمعنى ابن.

«ري - را» بمعنى الشمس.

ومنها: «راع» الذي ينسب إليه بعض الفراعنة، ومن حب المصريين لمصر، كان قدماؤهم يسمون أنفسهم «شعب الشمس» و «الشعب النبيل» و «شعب الإله» .

كما أن «مصر» في القرآن الكريم ﴿جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٢٦ وَنَعۡمَةٖ﴾ [1].

يقول الكندي: «وصفها بما لم يصف به مشرقا ولا مغربا، ولا سهلا ولا جبلا ولا برا ولا بحرا» .. ومصر في القرآن الكريم ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ [2] .

حتى «آدم» الذي فتح عينيه على الجنة، راعته مصر كما يقول الأسيوطي، تمتم «لاخلت مثلك يا مصر بركة، ومازال بك حفظ، ومازال منك ملك وعز، يا أرض فيك الخباء والكنوز، ولك البر والثروة، سال نهرك عسلا، كثر الله زرعك، ودر ضرعك، وزكى نباتك، وعظمت بركتك» .

(١) سورة الدخان الآية ٢٥- ٢٧.

(٢) سورة البقرة الآية ٦١.

..
هذه هى مصر، التى أحاول البحث فيها وعنها، وشرف لى أن أكون واحداً منها، هى أرض أجدادى، ومفتاح الحل لأحفادى.

المؤلف
محمد هيكل

النوبة.. الحجر والبشر

فى المبتدأ:

الحضارة المصرية هبة أهلها.. لأنها إبداع خاص بالمصريين، ووثائق التاريخ.. وحفائره أثبتت وحدة ونقاء الجنس المصرى على حد توثيق «فلندز تبرى» .

هاتان حقيقتان وهما منطلقتان من إيمان عميق بوحدة الوطن، ومسيرته الحضارية التى تؤسس للوعى الذى ينتقل من مستوى «الخصام والدعوة إلى الفرقة والسعى إلى تحقيق مصالح ضيقة» إلى مستوى «الحوار المنطلق من مسائل لا تقبل القسمة على اثنين، وصولا إلى مستوى الوحدة، غير متجاهل لمسألة التنوع واحترام الخصوصيات» .

ذلك يدفع إلى تأسيس الوعى بالتاريخ الذى يصنع نهضة الأمة، ويرسخ للعلاقات الحقيقية القائمة بينها، ووحدة التنوع هى ضرورة حتمية للتقدم فى الزمن، بالتاريخ وفى التاريخ.

...

هذه السخونة فى المشاعر «انتابتنى» نتيجة عاملين:

الأول: تلك الإثارة المجوجة حول أثنية الوطن المصرى، الذى يضم فى مقدمة رئتيه «النوبة» .. تلك الأرض بنية اللون، ومواطنها الأسمر، الذى فى سمرته رمز الأصالة، وأصالة الانتماء إلى الأرض الطيبة.

فضلا.. عن تلك الدعوة المسمومة فى «الانفصال» وتحويل الخصوصية النوبية، والتنويعة المصرية إلى حق فى تكوين هامش منعزل عن الوطن الأم باسم الظلم والإهمال والتهجير والإبادة، وذلك عبر بوق أمريكا راعية النزعات الانفصالية والزعزعة الدينية والتفرقة العنصرية.. مع التأكيد على تباين اللون، بالرغم من أن بعضا من أصدقائى وأهلى، وهم من أصول شمالية خالصة. لا يختلفون قيد أنملة فى لونهم عن أهلنا فى النوبة.

الثانى: زيارتى - مؤخرا - لمتحف النوبة بأسوان، الذى يعد «مفخرة» على المستوى الفنى، وفى العمق، هذا النسيج المصرى الخالص عبر السنين، التى شكلت بحق «حضارة» هى «هبة المصريين» والتعبير للدكتور زاهى حواس، لأنها تمثل نقاء خالصا للجنس المصرى، الذى لا يفرق بين شماله وجنوبه وغربه وشرقه.

(١)

ومازلنا فى المبتدأ

فى إهداء الروائى النوبى حجاج أدول إلى محمود سيالى فى رواية «الكُشر» .. ذكر أن محمودًا نصح أهله بالصعود إلى الجبل، حتى ينجُوا من الموجة النيلية، وألا ينحدروا شمالا، فلم يستبينوا النصح، إلا ضحى الغد.!

والمعروف «طبيعيا» أن الموجة النيلية تأتى من الجنوب، لأن نهر النيل، هو النهر العاصى، لأنه ضد الطبيعة - كما يقول عمنا جمال

حمدان – «كل أنهار الدنيا تنبع من الشمال وتصب فى الجنوب، إلا نهر النيل، فينبع من الجنوب ويصب فى الشمال، إنه العاصى الأعظم» !

ولنتأمل مقولة «أدول» وهى ليست اجتزاءً من النص:

«تجرى المياه الأفريقية نحو الشمال محملة بالغرين الخصب، قائلة لناس الوادى، خذوا المياه المقدسة، وازرعوا بها أرض الله المقدسة، كلوا هنيئا مريئا، ولا تسرفوا، ولا تنسوا ربكم الواحد الأحد الذى يرسل لكم تلك المياه الولادة بقدر» .

ويبدو أن الكابوس الذى هاجم قرية توماس – فى رواية الكشر – بذلك الطوفان الذى سيغرقها، ونفس الكابوس الذى هجم بنت عبد الله شاتى حتى أعياها، هو ذلك السد العالى الذى أدى إلى إغراق أرض النوبة. ويبدو – أيضا – أنه كابوس حجاج أدول.

ويتضح – أيضا – من الرواية، تلك «الولولة» من جانب نساء قرية توماس خوفا من الطوفان الذى سيغرق قريتهن، صار الهاجس لدى أدول، والذى تحول من حق التوطين فى أرض الأجداد المقدسة، إلى تلك الهجرة غير الطوعية، وتحول لديه من حق المواطنة، إلى دعوة الانفصال وتكوين ما يسمى «بيت النيل» .

وأعترف بهذا التسجيل الإبداعى، من خلال الموروث الذى يتضح فى هذه الصورة البديعة التى ساقها أدول لنساء قرية توماس «رقصة النائحات الجماعية» مازالت نساء القرية غارقات فيها، يَحْثُون الرمال على رءوسهن، يدبدبن بأرجلهن ذات الخلاخيل فيعطيهم

الرنين إيقاعا حادا، يلوّحن بأياديهن، فتصدر صلصلة الغوايش الذهبية والخزفية، صلصلة قدر يحوم ويستقر على رءوسهن» !

هذه الصورة الصادقة لنســاء توماس النوبية، هي ذاتها متكررة في ريف مصر الشمالي، ومتكررة في نجوع الصعيد.

...

أفهم.. واســتوعب هذا العالم القديم - الـذى يقدمه أدول - حيث العذوبــة والخيــال، حيث اللعب في الجرن، والجموح الجنســي لدى المراهقين في لعبة «الاستغماية» .. كلها محصلة طبيعية للتعامل البسيط مع الطبيعة، وهي تمثل الخصوصية، لكنها لا تعني الانسحابية.

...

وقد اتفق حجاج أدول في رواية «الكُشــر» ومحمد خليل قاســم في «الشــمندورة» .. في ذلك الخطر القادم من الفيضان، على إثر بناء السد العــالى عند أدول، والتعلية الثانية لخزان أســوان عند قاســم، لكنهما اختلفــا فــي المقصد، الأول ينعــي، ويطالب بالقصاص مـن خلال كيان انفصالي يســمي «بيت النيل» .. والثاني يبحث عن العدالة الاجتماعية، وعلى حد تعبيره «نحن نوبيون نعرف معنى أن تكون نوبيا وفقيرا» !

والشــمندورة - على حد وصــف فريدة النقــاش - رواية كفاح من الطــراز الأول، هنالك قرية «قتة» وعدد من قرى بلاد النوبة التي تمثل فيما بينها كيانا اجتماعيا وتاريخيا متسقا، تحشد قواها وتستعين بكل مقوماتها الروحية والمادية لمواجهة الطوفان القادم.

«نتشبث بمواقع أقدامنا على الجرن» .. وهو تشبث به كيان حضارى واجتماعى متماسـك، مهدد بالاندثار من خارجه، عاجز بحكم حدوده علـى التناطح مع الفيضان القادم، مع الدقات المنيفة على أبوابه للعالم الخارجى الذى لا يأبه به.

لقـد أنتجـت الثقافة الخاصة ببـلاد النوبة - والتـى تكونت عبر تاريخ طويل فى أعماق جنوب الوادى لتمتد إلى شماله - عددا من خيرة مثقفى مصر، منهم زكى مراد ومحمد خليل قاسـم ومحمد حمام ومحمد منير - ليسهموا أكبر كثيرا من الكم العددى لأبناء النوبة، وليصبح هذا الإسهام علامة مضيئة فى ثقافتنا المصرية المعاصرة.

واسمعوا معى آخر سطور الشمندورة.. وهى تحمل الأمل

«وقبل أن يختفى النجع، رأيت النيل يبرق بثريات باهرة، تصعد، ثم حانت منى التفاتة جانبية إلى الشمندورة الحمراء، فوجدتها ترتطم ارتطاما شـديدا بالسلسـلة التى تشـدها إلى قاع أليم، ثم تهدأ، لتعاود النضال من جديد» !

والرواية.. ليسـت بـكاء على أطـلال، وانتقاما من واقع سياسـى أو تاريخى، لكنها رؤية متفائلة للعالم، مؤمنة بالإنسـان، وبحقه فى العيش بحرية وكرامة.

(٢)

يمتد نظرى من أعلى قبة فى أسوان، من كوخ يسمى «البيت النوبى» تتكشف أسوان أمامى، يتجه نظرى جنوبا جنوبا، لكن سرعان ما أتحول

شمالا فى حركة لا إرادية.. إذن هو «الوطن» من جنوبه إلى شماله.

والبيت النوبى ليس متحفا للتاريخ، إنه «مقهى» متواضع، لكنه فى موقع سـحرى.. مع إطلالة صباح جديد، تشـرق الشمس الذهبية ناشرة نورها، محتضنة النيل، الذى أتصفح أبجديته بفخر إلى درجة الحماسة، فأشتعل دفئا، وفى غروبها – أى الشمس – وبنفس اللون الذهبى، تغطس فى مياه النهر، لكنها فـى الصباح التالى تعود، لتنفض عنها رزاز المياه النيلية المقدسة بعد أن توضأت بها، لتعلن نهارًا جديدًا.

ما بين الأمس

واليوم.. وغدا

أذهب للتاريخ

هى.. ليسـت محاولة لتمصير النوبة، أو إكسابها هذا اللون البنى لنيل مصر، أو أننا أبناء وطن واحد.

ليست القضية فى رأسى ويقينى ذلك.

إنما هى.. قضية الوطن الواحـد متعدد الأعراق، متباين الثقافات، الذى أفرز حضارة، هى هبة أهلها.

وما يدهشنى – حقا – ويثير الأسئلة المفتقدة فى رأسى، كيف صنع الإنسـان المصرى حضارته؟ كيف طوّع الحجر، وصنـع منه فنا؟ كيف تعامل مع هذه الطبيعة القاسـية منذ آلاف السنين فى هذه البقعة المقدسة من أرض مصر؟

من البيت النوبى من فوق هذه القبة العالية الساحرة أتأمل مجرى النهر، هـذه الصخور العاتية، وعندما أجلس القرفصاء أمام رمسيس الثانى فى معبد «أبو سنبل» أنتظر سطوع الشمس على وجهه فى الواحد والعشرين من شهر فبراير، والواحد والعشرين من شهر أكتوبر من كل عام، وفى الساعة السادسة وخمس وثلاثين دقيقة بالتمام والكمال، وعبر آلاف السنين، مع تغير العوامل المناخية.. أتأمل ذلك.

إذن هناك سر

، لكنه ليس سحرا

هناك علم

وليست خزعبلات!

وعندما أتأمل تمثاله المسكون فى حضن الجبل والذى يرتفع أكثر من ثلاثين مترا وبجواره زوجته نفرتارى الجميلة أخالنى يقول لأحفاده وكل من اندهش لرؤيته من كل أجناس الدنيا : «يا أطفالى.. لكى تبقى الحضارة، يجب أن يكون العلم والإبداع والجدية والإخلاص.

...

وندخل إلى عالم الحجر

فالمسافة من أسوان إلى «أبو سمبل» ، كانت مسرحا لحضارة نوبية، ولنتأمل تقسيم النوبة جيومورفولوجيا وجيولوجيا، وهى تنقسم إلى وادى النيل والصحارى.

فــى الوادى يمر النيل النوبى من حلفا إلى أســوان، قاطعا مســاحة ٣٥٠ كم عــبر وادٍ ضيق تحفه أجراف حادة الانحدار، وفيما بين حلفا وبلانة، شــق النهر واديه فى صخور من الحجر الرملى، وإذا كان هذا المجرى قد اختفى الآن تحت بحيرة السد العالى، فإن بقايا هذه الصخور لا تزال طافية مثل الجزر على سطح البحيرة.

وفيما بين منطقة وادى العلاقى وأســوان، شق النيل واديه فى أرض جرانيتيــة تعلوها طبقة رقيقة من الحجر الرملى، وقبل تكوين بحيرة الســد العالى، كان النهر يشق مساره فى الصخور المتبلورة عند كلابشة بعرض لا يزيد على مائتى متر، وكانت هذه بمثابة أضيق بقعة للنيل فى مصر، مما انتفى معه وجود أى سهل فيضى على جانبيه، وعند أسوان، يتخلل النهر كتل هائلة من الصخور النارية التى تشكل الجندل الأول، وفى شماله، تتلاشــى هذه الصخور الناريــة، لتظهر بدلا منها الجزر الطينيــة والرملية، التى ترتكز علــى بقايا صخور نارية أو طبقات من الحجر الرملى.

والشق الثانى:

الصحــارى: وفيمــا بين أدنان وكلابشــة، تحف أجــراف الحجر الرملــى ببحيرة الســد العالى، وهى طبقات أفقيــة معتدلة الميل ناحية الشمال، متعددة الألوان، ما بين الأسود والبنى المحمر والأصفر الباهت والرمادى الأبيض، مما أعطى منطقة النوبة صبغة بنية متميزة.

وقد تأثرت صخور الحجــر الرملى بالصدوع الكثيرة ذات الاتجاه، شرق – غرب، خاصة جنوب مرتفعات كورسكو، وشمال – جنوب، فى شمال وجنوب كورســكو، بعضها له امتداد ملحوظ مثل صدع كلابشة، وقد كانت لهذه الخطوط التركيبية أثر كبير فى تشكيل تضاريس منطقة النوبــة، ويرى ذلك فى اتجاهات الأعــراف «Ridges» ، وفى الظواهر المورفولوجية، وفى مسار النهر، وتتخذ الأشكال المورفولوجية اتجاهًا شرق غرب فى الجنوب، وشمال جنوب فى شمال كورسكو، وفى المنطقة الواقعة بين كورسكو وأسوان، حيث يظهر الجرانيت والنيل الأسوانى تحت غطاء رقيق من الحجر الرملى، كما أن ظهور الكثبان الرملية سمة مميزة للمنطقة.

أما فــى الجنوب بالقرب من «أبى ســنبل» ، فتظهر الموائد الصخرية، والأقمــاع المخروطية مــن الحجر الرملى على جانبى بحيرة الســد العالى، وتظهر الأعراف الطولية من الحجر الرملى شمال كورســكو بدلا من التلال المخروطية من الحجر الرملى، نتيجة ما يســمى الحركة التقوسية، عندما تحيط بمسافة منبسطة ومتسعة أكثر من ٣٠٠ كم جنوب صدع كلابشة.

(٣)

.. وفى زيارة للتاريخ

وبالكشــف عن البشــر فى هذه البقعة المقدسة، من أرض مصر، تشير الكشوف الأثرية إلى مدى الارتباط الحضارى الذى جمع أهل وادى النيل،

جنوبه وشماله، فخلال الحقب الزمنية المختلفة، التى تعرف باسم العصر الحجرى القديم، تنقلت بين جنباته جماعات اعتمدت فى حياتها على صيد الأسماك والحيوانات البرية، ويستدل على ذلك من الأدوات الحجرية التى خلفوها وراءهم، والرسوم الصخرية المنقوشة على جانبى النهر، التى أوضحت إقامة مساكن مؤقتة قريبة من النهر، وقد عثر على آثار هذه الجماعات فى أماكن عديدة مثل «عافية وخور داود ووادى السبوعة وتوشكى» .

وتشير الوثائق والكشوف الأثرية إلى أن تحولات حضارية طرأت على أهل النوبة منذ أكثر من ١١ ألف سنة، إذ عثر فى موقع «النبطة» ٤٥ كم غرب أبى سنبل، على شواهد معمارية من منازل ومقابر تعتبر مؤشرا لاتجاه المجتمع نحو الاستقرار، مما يشكل مرحلة انتقالية بين العصر الحجرى القديم، والعصر الحجرى الحديث.

ومع نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، استهل الشطر الشمالى لوادى النيل عصوره التاريخية، عندما اخترع نظاما للكتابة، وتمكنوا من إنشاء دولة موحدة، تصرف أمورها حكومة مركزية واحدة، إلا إن الأمر لم يسر فى النوبة على نفس الوتيرة، نظرا لظروفها البيئية والجغرافية، ولضيق مساحة الأراضى الصالحة للزراعة، لذلك، كانت خطاهم فى الحضارة أبطأ من أشقائهم الشماليين.

ونظرا للرابطة العضوية بين شمال الوادى وجنوبه، لم يجد علماء الآثار مناصا من التوفيق فى الرؤية التاريخية، فقد انتشرت فى العصر

الفرعوني شـــواهد كثيرة في أماكن مختلفة فـــي النوبة، وتدل الصفات التشـــريحية لأصحابها على أنهـــم لم يختلفوا «عنصريـــا» عن أقرانهم الشـــماليين، ويشير تزايد الســـكان على أن عناصر مهاجرة من الشمال استقر بها المقام في النوبة.

كما تتوفر شـــواهد كثيرة على صلة النوبيين بالشـــماليين، فقد عثر في بعض دفنات عصر بداية الأسرات على رءوس مقامع بمقابض ذهبية وأدوات نحاسية وصلايات وأوانٍ فخارية وحجرية كلها مصرية الطراز، وفي جبل سليمان جنوبي بوهن نقشت لوحة باسم الملك «جر» أحد ملوك الأسرة الأولى المبكرين.

وفي الدولة القديمة ٢٧٠٠ - ٢٢٠٠ ق.م كانت مصر تمر بواحدة من أزهـــى وأرقى عصورها التاريخية، وقد ارتـــأت حكومتها المركزية في «منف» أن تبســـط ســـلطانها على كل أطراف الدولة، بما في ذلك النوبة السفلى، وكذلك أنشطتها في المحاجر، لا ســـيما محجر «الديوريت» غربي توشكي، وظهرت في أماكن مختلفة أشهر ملوك هذا العصر أمثال «خوفو وخفرع ومنكاورع» من الأســـرة الرابعة، و «سركاف وساحورع» من الأسرة الخامسة.

وزاد نشـــاط الحكومـــة المركزيـــة كثافـــة خلال الأســـرة السادســـة ٢٣٤٥ - ٢١٨١ ق.م، ويظهـــر ذلـــك فـــي نصوص بعـــض كبار رجال الدولة، وحكام أســـوان، فقد قام الموظف المشهور «وني» بتمهيد خمس قنوات للملاحة النهرية بين صخور الجندل الأول لتيسير سبل الملاحة

بين شطرى الوادى، وجند فى جيشه عناصر نوبية من «أرثت وواوات ويام ومجاى» لمحاربة المغيرين من البدو على حدود مصر الشمالية الشرقية، وقام «حرخوف» حاكم أسوان بأربع رحلات استكشافية فى النوبة وصل فيها إلى «يام» التى كانت تقع جنوب الجندل الثانى، ذلك فضلا عن أسماء الأماكن والقبائل النوبية التى راحت تتردد فى النصوص المصرية، فقد ظهر فى متون الأهرام اسم الإله النوبى «ددون» والذى يوصف بأنه «جالب البخور» .

(٤)

وبعد مرور المصريين بتجربة شديدة المرارة بعد وقوعهم تحت الهكسوس، تغير مفهومهم للحدود الآمنة فى الدولة الحديثة ١٥٥٠-١٠٧٠ ق.م .. وما إن تخلصوا من الحكم الأجنبى، وتحررت إرادتهم، حتى سعوا إلى توطيد أركان استراتيجية دفاعية جديدة، قامت على أساس توسيع حدود مصر، والتى هيأت بناء أول امبراطورية مصرية فى أفريقيا، بل وآسيا.

وانعكس الفكر السياسى المصرى الجديد على علاقة مصر بالنوبة، ولم ينس الفراعنة الجدد، تحالف دولة «كوش» النوبية مع الهكسوس، لذلك وجدوا لزاما عليهم ضرورة القضاء على أدنى خطر قد ينشأ، ويهدد الأمن القومى، وذلك بضم جنوب الوادى إلى الدولة المصرية فى الشمال.

وإذا كان الفضل يرجع إلى كل من «كامس وأحمس» فى عودة النوبة السفلى إلى سابق عهدها كجزء من الدولة، فإن الفضل يعود إلى

«تحتمس الأول» في القضاء على الكوشية ودخول عاصمتهم «كرما» .. والوصول إلى الجندل الرابع، وفي عهد حفيده «تحتمس الثالث» غدت النوبة بأسرها - من الجندل الأول حتى الرابع - جزءًا لا يتجزأ من الدولة المصرية.

ولم تعد النوبة في نظر الدولة المصرية مجرد إقليم حدودى، ينبغى حمايته بالقلاع والحصون - كما كان الحال في الدولة الوسطى - وإنما اعتبرتها امتدادا طبيعيا للأراضي المصرية، تسرى عليها النظم التى كانت مطبقة في سائر أنحاء الدولة.

(٥)

ويتسم التراث الشعبى النوبى بالثراء والتنوع، ويتمتع بخصوصية تميزه عما عداه في أرجاء وادى النيل، نظرا لأنه نتاج ثلاث جماعات:

١ - الكنوز ويتكلمون اللغة الماتوكية.

٢ - الفديجة ويتكلمون اللغة الفاديجية.

٣ - عرب العليقات الذين وفدوا على النوبة من شبه جزيرة سيناء خلال القرن الثامن عشر الميلادى.

وتتكون قرى النوبة من مبان مقامة من الحجر والطمى والرمل، أما أسطح منازل محدودى الدخل فتتكون من جريد النخل وسيقان الذرة، وأسطح الميسورين هى على شكل قباب مبنية من اللبن، وعادة ما تفرش أرضية المنازل بالرمل النظيف، وتتدلى من أسقفها أدوات

الاســتخدام اليومى، ويزيــن جدران المنزل خاصــة الواجهات حليات وزخــارف، ويتكون المنزل - عادة - من المدخــل، الفناء، غرف النوم «القبارى» المخزن، المطبخ «الديوكة» والمرحاض والمزيرة.

وتتعــدد أنواع الحلى النوبية، منها القلادات والدلايات والأســاور والخواتم والأقراط وزمام الأنف والخلاخيل، وغالبا ما تصنع من الذهب أو الفضة، وتطعم بأحجار شــبه كريمة، وتنحصر الصناعات والحرف النوبية فى الســلال والحصير من سـعف النخيل والأوانى الفخارية، ويذكر هنا، أن هذه الصناعة اعتمدت اعتمادا كاملا على النســاء اللاتى يبدأ إعدادهن لها منذ الصغر. !

ولجأ النوبيون - شــأنهم فى ذلك شــأن أبناء الــوادى - إلى التمائم والأحجبة والأحراز لجلب الخير، وقد أخذت أشــكالا مختلفة، منها ما يرسم على الجدران مثل العقرب والعين وشكل المثلث، ومنها الضفائر المصنوعــة من الخرز والصوف، وتعلق على أعمدة أســرة النوم، ومنها ســلال الخوص الملونة والمزينة بقواقع ناصعة البياض تتدلى من أسقف الغرف مثل النجف.

ويتسم الرقص النوبى بالجماعية، يشترك فيه الرجال والنساء على حد ســواء، ويرتبط بموســم الزراعة والحصاد، مما يســاعد على وفرة المحصول وسعة الرزق.

والزواج النوبى، مسئولية الوالدين، وإن كان العم والخال يشتركان فى تحمل المسئولية، لأن نظام القرابة النوبى، نظام مزدوج، بمعنى أنه يجمع بين النسب الأبوى والأمومى.

ويعتبر زواج الفتى من ابنة عمه، مسألة أخلاقية - كما يحدث في القبائل الشمالية - وإذا تزوجت الفتاة بغير ابن عمها أو ابن خالها، يصبح مهرها أقل بكثير!

ويحرص النوبيون على تقديم النقوط والهدايا العينية لأسرتي العروسين، للمساعدة في إقامة حفلات الزواج - ولأن النيل يشكل عنصرا جوهريا في الثقافة النوبية - لذلك يتعين على العروسين أن يهبطا إليه ليلة الزفاف، ويغتسلا بمياهه أملا في جلب الخير وانجاب الأطفال!

(٦)

وأصل إلى «الخبر» .. للإجابة عن «المبتدأ» .

وتتمحور الإجابة في جملة واحدة «متحف النوبة» . !

وتعود فكرة إنشاء المتحف إبان الحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة، في الستينات والسبعينات، من القرن العشرين، ليضم التراث الأثرى والتاريخى والحضارى والبيئى لبلاد النوبة - كما يقول أسامة عبد الوارث مدير المتحف - وليكون تتويجا لدور الحملة الدولية لإنقاذ هذه الآثار بأن تعرض في متحف.

وتلخصت فكرة تنسيق الموقع - كما يقول د. أحمد نوار الذى حمل على عاتقه ورفاقه إنشاء المتحف - على اعتبار التكوينات الصخرية من أبرز عناصر الموقع، واستعمالها في تكوينات متنوعة، تميز

التنسيق المطلوب، ليجعله مناسبا لعرض التماثيل واللوحات الأثرية كبيرة الحجم فى الهواء الطلق.

كما تم عمل مجموعة من المسارات، وحفر قنوات مائية وبحيرات ترمز إلى نهر النيل من المنبع إلى المصب، مع مجموعة جنادل توضح الملاقة بين النهر والقرية النوبية المحاطة بنباتات ذات أصول مصرية قديمة، إضافة إلى مسرح مكشوف، وعرضت على جدرانه مجموعة من الرسوم لحيوانات ما قبل التاريخ.

ويتكون المتحف من ثلاثة طوابق «تحت الأرض ويحتوى على قاعة العرض الرئيسية ومعامل الترميم والورش، والأرضى، ويحتوى على المداخل الرئيسية وقاعات العرض، أما الطابق الأعلى، فيحتوى على كافيتريا ومكتبة ومكاتب الأمناء وإدارة المتحف ومركز للمعلومات.

والمتحف مقام على مساحة ٧٠٠٠ م٢، تحتل مساحة الموقع الخارجى والمكشوف ٤٣٠٠ م٢ ، فيما تحتل مساحة قاعات العرض ٣٥٠٠ م٢، و ١٠٧٠ م٢ للمخازن، و ٢٣٧٠ م٢ للخدمات العامة.

ويطمح المتحف - على حد تعبير أسامة عبد الوارث - فى أن يصبح مركزا علميا لعرض التراث الحضارى النوبى من الناحية التاريخية والأثرية، إضافة إلى الجيولوجية والثقافية، من أقدم العصور حتى بناء السد العالى، كما أن المتحف مصمم ليكون مركزا للدراسات المتحفية بمنطقة أسوان.

والمتحف يستقبل زواره على مدار العام بشكل مكثف - كما تقول مسئولة العلاقات العامة حنان الجابرى - ويستضيف الندوات والمؤتمرات سواء كانت ثقافية أم علمية، فضلا عن أن مكتبة المتحف تقدم للباحثين والزوار ما يحتاجونه من كتب باللغات المختلفة.

وعن أناقة المتحف ونظافته، تقول: هذه تخرج من نطاق الوظيفة إلى حيز الإيمان بالموقع، باعتباره متحفا لحضارة عريقة، وواجهة حقيقية لمصر، ونحن لا نقل عن الفرنسيين في الاهتمام بآثارنا، وإذا كان أجدادنا قد تركوا لنا هذه الثروة ممثلة في هذه الحضارة العظيمة، فمن باب أولى على الأحفاد الاهتمام بها، ورعايتها.

ويرى د. أحمد نوار:

أن المتحف ظل حلما طال انتظار تحقيقه، وهو يحكى قصة الكفاح العظيمة للإنسان المصرى، بين الصخور العتيدة، وشلالات النهر الجارفة، وهو يبنى حضارة تتحدى الزمن، فنا وعلما وثقافة، وهو يخلد ذكرى التلاحم الرائع بين شعوب العالم فى استجابتها لنداء اليونسكو لإنقاذ آثار النوبة.

وتبرق عينا «نوار» وهو يلخص المشروع المتحفى بقوله: «متحف النوبة جوهرة سمراء تفيض سحرا وجمالا في جنوب مصر» .

(٧)

وإذا كان للدكتور أحمد نوار الحق فى أن يرتعش جسده وهو يزور المتحف بعد تسع سنوات من افتتاحه، خوفا من أن يكون قد

لحقه الإهمال، شـأن مشـروعاتنا الجميلة، والتى تبدأ بزأاقةٌ وسرعان ما يعلوها التراب، وإذا كانت لدموعه الحق فى أن تذرف بعد أن وجده معافًا أنيقا شابا.!

ولى الحق، فى أن أمشى مختالا، بالرغم من إيمانى بالآية الكريمة :
﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[1].

وإعجابى بمقولة أبى العلاء المعرى

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

وجدتنى أخرق ما أؤمن به، واختال، فإذا كان «نوار» قد دمع لرونق ما شارك فى صنعه، فأنا لدى أسبابى:

«إن فـى مصـر متحفا بهـذا القدر مـن الرونق، فضلا عـن أن هذه الحضارة التى شـيدها أجدادى، تمثل حياة نهر، وحياة إنسان، وكفاح استمر، وعُمْر امتدّه !

(١) سورة الإسراء الآية ٣٧.

حلايب - أبو رماد - الشلاتين: أرض الأحلام

هبطت الطائـرة أرض مطـار برنيس، أنتظر بشـوق رؤية الأرض، الناس، وأنتظر بلهفة ملامسة واقع مصرى على حدود جنوبية تبحث عن أمنها بشكل حقيقي، ألتهم التاريخ، وأقفز إلى الواقع، أصل إلى نتيجة: هذه أرض أجدادى، وهى مفتاح الحل لأحفادى.

هـذا التكويـن الرائـع، أرض ممتـدة – ذهبية اللون فـى المنظور الإبداعي – صفراء في الحقيقة، يجاورها البحر الأحمر بزرقة صافية، فيقابله امتداد جبل «علبة» بشموخ يحسد عليه.

نقطع نحو مائة كيلو إلى الشلاتين، الضلع الأول فى «مثلث الأحلام» .. نلتقـى بعيون الجمال الواثقة، الباحثة عن بعض من طعام لتختزنه للزمن، وفى انتظارها على الجانب الآخر «سمسـار» يبحث عن عمولة من بيعها، لتسـتقر فى النهاية فى بطون تبحث عن لحم آمن، فى زمن أنفلونزا الطيور!

تقابلنا الوجوه السمر

بعضهـا «كالح» بحكم التجاهل والتباعد الذى اسـتمر طويلا، لكن وجـوه الأطفـال ذى سـمـرة ناصعة، لأنهـا لامعة، وربمـا حالمة بغد أفضل!

«حسين» ..ابن العاشرة اصطحبنا فى جولة سياحية – على عربته الكارو وحماره. في سوق الشلاتين، متطوعا، رافضا أن يتقاضى أجرا، لأننا على حد قوله ضيوفه، وفى المقابل طلب أن يرى الفندق الذى نعيش فيه، والأكثر: دورة مياهه!

«السوق» ..علبة صفيح، تحتوى على بهارات و بن وبعض أصداف، وسياح متناثرين جاءوا من مرسى علم.. وربما تحتوى هذه «العلب الصفيحية» أحلام البيزنس في المستقبل!

نبحث عن مصريتنا فى وجوه الأطفال، ونبحث عن المستقبل على صفحات الرمال الممتدة، ونتشوق أملا فى وجوه الرجال المثبتين على هذه الأرض التى تستحق الحياة.

جئنا جميعا إلى حدودنا الجنوبية من مصر.

من الحدود الشرقية «العريش» ومن وسط الصعيد «بنى سويف» .. ومن القاهرة «المركز» .

كنا رفقة عددها مائة. بعضنا موظفون فى الثقافة الجماهيرية، وكثير منا فنانون يبحثون عن أبجدية وجودهم الإبداعى، على هذه الأرض البكر.. وبعض منا صحفيون.

بعض من الرفقة ضمت: طلعت مهران وألبير إبراهيم ومجدى شلبى من كبار موظفى الهيئة، ومعهم الجميلان محمد عزت ووليد مهدى، ومن الباحثين المفتونين بالمنطقة من خلال تراثها الفلكلورى مسعود شومان، ومن الصحفيين أحمد هريدى ويسرى السيد والفتى سيد يونس.

كلٌ يبحث في وجه الآخر عن «الانفعال باللحظة التاريخية على هذه الأرض» .

كنا أول قافلة ثقافية تصل إلى هذه المنطقة الساحرة البكر، الهامة بوضعيتها الاستراتيجية، المثيرة للجدل في كتب التاريخ، وفي أجندة الساسة، الباحثة عن مكان لائق بها على خريطة الاهتمام المصرى الرسمي والشعبي.

هي.. تحتاج إلى التنمية البشرية – كما يقول عمنا جمال حمدان – في تنمية الصحراء، عندما كان يبحث عن العلاقة الحميمة بين الأرض والبشر، والإنسان والوطن.

حدثنا في حماس قبل الرحلة، د. أحمد نوار رئيس الثقافة الجماهيرية.. «هي – أى الرحلة أو القافلة – تهدف إلى تحقيق الانتشار الثقافي، وتغطية المناطق الحدودية والنائية، كما تهدف إلى تحقيق التفاعل بين ثقافة المركز وهذه المناطق، لتنصهر في بوتقة واحدة، وتعطي ملمحا ومذاقا خاصا، لتعبر عن الثقافة المصرية بجذورها الثابتة والممتدة عبر القرون، وما تحمله من قيم وعادات وتقاليد، تسهم في النهاية في ترقية الوجدان المصرى، وتعمل على تأكيد أصالته» .

يضيف.. «والقافلة تأتي في إطار نشاط مدروس للتوجه إلى جميع المناطق المحرومة من الثقافة» .!

(١)

أمضينا أسبوعا. ننتقل فيه من ضلع إلى ضلع آخر في المثلث،

من الشـلاتين إلى أبو رماد إلى حلايب، المساحة الإدارية حوالى ٢٥٠ كم من جملة المسـاحة الكلية البالغة ١٨ ألف كـم.. وهو يبعد عن القاهرة كثيرا كثيرا، يبعد مئات السنين، لأن عمره آلاف، آلاف السنين.

المدهش.. تفاعل الناس.. هم عطشـى للثقافة المصرية، برغم وجود «الدش» على كل منزل من «الصفيح» !

كل ليلة.. تتأنق النسـاء. ويرتدى الرجال الملابس النظيفة. ويحوم الأطفال فى فرح!

وتضمنـت القافلة فرقة بنى سـويف للفنون الشـعبية التى بهرت مواطنى المثلث، بألوان ملابسها الزاهية، وتابلوهاتها التى تمثل الحياة فى وادى النيل، خاصة الزراعة ومواسـم الحصاد، فضلا عن الإيقاعات السريعة، والموسيقى الغنية بتراث الإنسان المصرى فى الوادى.

وقد تأسسـت الفرقة – التى تغلبت على أحزانها عقب محرقة قصر ثقافة بنى سويف كما يقول مدرب الفرقة محمد الحريرى – عام ١٩٩٥. وتتكون من ٤٥ عضوا ما بين راقص وراقصة وموسيقيين ومنشدين.

وقد شاركت الفرقة على مدار العقد الماضى فى مهرجانات: بلغاريا وأسـبانيا واليونـان والمجـر وإيطاليا، ومـن برامجهـا: الفرعونى، الفلاحـى، الصعيـدى، الآلات الشـعبية، المولـد، الفـرح الفلاحى، الحصان، والتنورة.

أما فرقة سـيناء البدوية للـتراث التى جاءت من أقصى حدود مصر

الشـرقية من «العريـش» إلى أقصى حدود مصر الجنوبيـة فى «المثلث» فقد أحدثت تأثيرا بالغا لدى المواطنين، لتشـابه العـادات والتقاليد، وبدا التفاعل ساخنا بين الطرفين.

ويمكن القول.. إنها فرقة مميزة فى تقديم التراث البدوى الأصيل، وكان لأغاني ومواويل حميد إبراهيم، مع الأداء الحركى لإيمان الدسوقى بملابسـها العرايشية ذات الطابع الفلسـطينى أثر بالغ فى التجاوب، بـل والفهم المشـترك بين مواطنى مصـر فى المثلـث، وفنانى مصر من سيناء الشمالية.

والفرقة التـى حرصت على تجميع التراث السـيناوى، تتكون من ٢٥ عضوا، وتعزف موسيقاها على آلات المجروئة والسمسمية.

أما «الأراجوز» الذى قدمه أحمد شـكوكو ابن شـقيق الفنان الراحل محمود شكوكو، فقد ألهب خيال الكبار قبل الصغار.

والأراجوز.. وهو أحد أشكال مسرح العرائس، عاش طويلا فى مصر «بطرطوره» الطريف، وصوته المميز، وعصاه الصغيرة، التى يضرب بها من يحاوره أو يختلف معه.

وهـو يقدم عرضـا فكاهيا سـاخرا من «حدوتة أو نكتـة» تعبر عن تناقضات المجتمع، ويؤكد علماء الآثار أن الأراجوز وجد فى الحفريات المصرية القديمة، أى إنه فن مصرى أصيل، نقله فيما بعد الأتراك أثناء احتلالهم مصر.

(٢)

والمثلث.. يضم الشلاتين التي تقع على خط عرض ٢٢ شمالا، وقرية أبـو رماد التي تبعد ١٣٣ كم من الشـلاتين، وحلايب وتبعد ١٧٠ كم، ورأس حدربة وتبعد ١٩٠ كم، وأبرق وتبعد ١٣٥ كم، ومرسـى حميدة وتبعـد ٥٠ كـم.. كما تبعد الشـلاتين عـن الغردقة بنحـو ٥٥٠ كم، وعن مرسى علم ٢٥٠ كم.

ويبلغ عدد سكان المثلث - كما يقول العميد على شوكت رئيس مدينة الشـلاتين مع نهاية عام ٢٠٠٥ نحو ١٥ ألف نسـمة.. وتتخلل الحدود الإدارية للشـلاتين منطقة سهل ساحلي يزداد في الاتساع كلما اتجهنا جنوبـا حتى قرية أم رماد، كما تمتد سلسـلة جبال البحر الأحمر في الاتجاه الغربي للشلاتين، ومن أهمها جبال «أبرق» الفرايد، أم الطيور، علبة، حمرادوم، حدربة، ملدوب.

وتخترق سلسـلة جبال البحـر الأحمر عددا من الوديـان أهمها: «سـعفة، الرحبة، حوضـين، أبو سـفيرة، دعب، كرات، بسـارة، الشـلال، ميسـح» .. ويوجد عدد من الآبار الصالحة للشرب.. أهمها: «الجاهلية، أبابيب، العمريب» .

وتقع الشـلاتين جنوب مدار السرطان، وذلك يؤدى إلى ارتفاع درجة الحرارة تسـعة شهور في السنة، ويوجد منفذان مع السودان «حدربة، سوهين» .. ويربط منفذ حدربة بالشلاتين طريق أسفلتي بطول ١٩٤ كم، وتدخل منه البضائع الواردة من ولاية بور سودان شرق السودان، أما منفذ

«سـوهين» فيتصل بمدينة الشـلاتين «بمدق» بطول ٢٠٠ كم وتدخل منه البضائع الواردة من ولاية وادى النيل.

وأهم الواردات: الإبل، الحاصلات الزراعية، السمسـم، الكمون، الذرة الرفيعة، الفلفل الأسود.

وتمتلك مدينة الشـلاتين وقراها مسـاحة تبلغ ٢٥٠ كم على ساحل البحر الأحمر، الذى يحتفظ بكميـات كبيرة من أجود أنواع الأسماك، كمـا أن المنطقة غنية بالثروات المعدنيـة، ومقومات الصناعة.. ويطالب العميد على شوكت بوضعها على خريطة التعدين.

وهناك ثلاث حرف رئيسية هى الرعى والصيد والزراعة، والرعى.. هى الحرفة الرئيسية لأغلب سكان المثلث، إذ إنهم بدو رحل، يتجولون باسـتمرار حول الآبار والوديان، وتعتبر الإبل هى الحيوان الرئيسـى فى المنطقة، وهناك نوعان:

١ - إبل الحمل وهى قوية العضلات، ضخمة السنام، ثقيلة الوزن.

٢ - إبل الهجن، وهى سريعة العدو، خفيفة، قليلة الشحم.

(٣)

وترجع الأصول السـكانية الأولى لسـكان المثلث منذ القدم إلى قبيلة «البجـا» التى كانت تعيش منـذ أكثر من أربعة آلاف عام، واسـتعان بهـم الفراعنة فـى الدفـاع عن الوطـن، ولفظ «بجـا» يعنـى «المقاتل القوى الشجاع» !

ومن أهم فروع البجا :

١ – الهدندوه

٢ – الأمرأ

٣ – الحلانقة

٤ – بنى عامر

٥ – العبابدة

٦ – البشارية

وتنتشـر الفروع الأربعة الأولى من قبائل البجا في السودان، وأثيوبيا، فيما ينتشـر الفرعان الأخيران في السودان ومصر، ويتحدث العبابدة اللغة العربية التي تتضمن بعض المفردات البيجاوية، أما البشـارية فيتحدثون اللغة البيجاوية «الرطانة» .. وقليل منهم يتحدث العربية مع البيجاوية.

وتنقسم قبيلة «البشارية» إلى فروع أهمها: الحمادوراب، العلياب، الأمراء، الشنتيرات، ويسكنون الصحراء الشرقية، أما قبيلة «العبابدة» فينقسمون إلى بطون أهمها: الشناتير، العبوديون، المليكاب، العكارمة، «المشباب» ، وقد اندمجت قبيلة العبابدة مع سكان وادى النيل، ماعدا «العشـباب» الذين يعيشـون في الصحراء الشرقية، من القصير إلى آخر حدود مصر مع السودان.

أمـا قبيلـة «الرشـايدة» .. فهى غير معـترف بها على المسـتوى الرسمـى. مـن حيث الحقـوق والواجبـات، وهم يعيشـون بمعزل عن البشارية والعبابدة، وهم لا يمتهنون الصيد، وزيارتهم لمدينة الشلاتين تتم بتصاريـح، ولمدة أيام، ثم يعودون إلى خيامهم، ويعملون بالتجارة

والرعى، وترجع أصولهم إلى أصول ســعودية تنتمى إلى آل رشيد، وقد نزحت إلى مصر عندما تولى آل سعود الحكم.

ولم تختلط قبيلة الرشــايدة مع الشــعوب الأفريقية، ولم تتأثر بهم فى الملامح الجسدية مثل لون البشرة والعيون والشعر الأسود المسترسل، ولا تتمتع القبيلة بالحقوق التى يتمتع بها قبيلتا العبابدة والبشــارية، لكن يقدم لأفرادها - بواســطة الوحدة المحلية - الخدمات الإنســانية وتصاريح الإقامة، لأهداف سياسية. !

وتواجه قبيلة الرشايدة مشكلات منها:

- ☐ عدم التمتع بحرية الانتقال كغيرهم.
- ☐ عدم وجود بطاقات إثبات شخصية لأفرادها.
- ☐ عدم توفر الكهرباء أو مياه الشرب مع نقص الرعاية الصحية!

(٤)

وتنتسب قبيلة البشــارية إلى جدهم «بشار بن كاهل» ويرجع نسبه إلى قبيلة «الكواهلة» التى تنحدر من نســل الزبير بن العوام، وقد تزوج بشــار من امرأتين من «البجــا» .. الأولى: «أم ناجى» والثانية «أم على» .. وهم أولاد عم العبابدة، ومنذ أيام هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم صاروا قبيلتين منفصلتين.

وتنقسم قبائل البشارية إلى قسمين :

١ - بشارية أم ناجى.

٢ - بشارية أم على.

ويسكن بشـــارية أم على شمال خط ٢٢، وأهم فروعهم «الشنتيراب» ولفظ «آب» يعني «الانحدار من الجنوب» .. أما بشارية أم ناجى فيسكنون بعد خط ٢٢ داخل السودان ووسطه.. أما جنوب الشلاتين حتى خط عرض ٢٢ على ساحل البحر الأحمر، فيسكنها قبائل الحمد أوراب.

وقد نزحت قبائل البشارية من الجزيرة العربية - فى وقت مبكر - إلى السـاحل الأفريقى، وقد اختلطوا بالزنوج، وتزوجوا منهم، وأخذوا عنهــم لغة «البجا» .. ولأنــه لا توجد مواصلات بين أجزاء المثلث، فقد انغلقوا على أنفســهم، وكونوا جماعات منغلقة، يتحدثون لغة البجا، ومع مرور الأيــام، اندثرت اللغة العربية، وصاروا لا يتكلمون ســوى اللغــة الزنجية، أو لغة البجا.. وتذكر حكايات التاريخ أن البشــارية هم «حراس الذهب» منذ أيام الفراعنة!.

(٥)

وفى المشــهد العــام تبدو الصحــراء الشاســعة - لأول وهلة - كما لــو أنها تفتــح ذراعيها لأى قادم إليها، ليقيم عشــوائيا فى أى مكان، أو ليدعــى ملكية من يشــاء، خصوصا أنه لا يلوح فــى الأفق أى مظهر من مظاهــر الملكية الخاصة! .. غير أنه بالنظرة المتأنية يتضح أن الأمر مختلــف إلى حد بعيــد، فمناطق الإقامــة والرعى فى تلــك الصحراء، وإن كانــت عرضة باســتمرار للتغــير، بانتقال قاطنيهــا، يراعى عند اختيارهــا عدة اعتبارات، تعود أغلبهــا إلى الظروف البيئية والعوامل الطبيعية، ويعود البعض الآخر إلى عوامل اجتماعية وظروف سياسية،

وكلها عوامل يدركها البدوى جيـداً، باعتبارها تراثا حضاريا ينحدر إليه عبر الأسلاف.

ولكي يقيم البدوى مسـكنه المؤقت أو شبه الدائم، الذى يتألف عادة من بيت من الشـعر، أو من الجدائل النباتيـة، أو من الصفيح، ينبغى أن يختار موقعا منبسـطا على ربوة عالية، على حافة الوادى الجبلى، أو علـى مصطبة أحد الأوديـة الفرعية، وذلك تفاديا لمخاطر السـيول الجارفـة والمفاجئة مـن ناحية، وابتعـادا عن مناطق زحـف الكثبان الرملية من جانب آخر، فضلا عن أن اختيار الموقع يجب أن يكون قريبا مـن مصادر الميـاه الطبيعية المتمثلة فى الآبـار، وإن كانت الإبل ترعى في مساحات واسعة، وبالأيام، وتعود من تلقاء نفسها إلى أصحابها.

فضلا عن ذلك، وفي الوقـت الراهن، وطبقا لدواعى الأمن، والظروف السياسـية التى تحكـم العلاقات المصرية السـودانية، وما نجم عنها من مواقـف غير طبيعيـة، فإنه ينبغي عند اختيار الموقـع للإقامة والرعي، أو لكليهما، خصوصا فى المناطق القريبة من الحدود الفاصلة بين البلدين، أن تتم بالتنسيق مع قوات الأمن وحرس الحدود العاملة في تلك المناطق.

ويشـاهد في الأماكن الحضارية التقليدية فى الشلاتين، أبو رماد، حلايـب، بعض المظاهر المصريـة المتمثلة فى المنـازل النمطية والطرق المخططـة، ويمكـن أن نطلق عليها مجازا «قريـة» .. وتتكون كل قريـة أو حلـة «أى حـى» من عدد مـن العائلات الكبـيرة أو «البدنات» التى تقوم على نظام الانتسـاب فى خط واحد، وهـو دائما «الخط الأبوى»..

فكل جماعة يرتبط أعضاؤها ببعض، بروابط الدم العاصبة، أى إنهم ينحدرون في خط الذكور من سلف مشترك تعرف جماعته باسمه. مثل عائلة «الفرحانات» في الشلاتين، والشويمات والجامعات فى أبو رماد.

وتتماثل مساكن العبابدة مع البشارية إلى حد كبير، فحياة البداوة تتطلب أن يكون المسكن بسيطا، يسهل حله من وقت لآخر، ومن مكان إلى مكان، وهي تتكون من الخيام المصنوعة من الحصير المجدول من سعف النخيل، وبعض من القماش السميك، أو الخيش، وأحيانا من صوف الغنم أو جلد الماعز، أو وبر الإبل، ويختارون إقامتها بعيدا عن مخرات السيول.. ومن عاداتهم ألا تكون أكواخهم ملاصقة لأكواخ الآخرين.

والطريف.. أن النساء هن المسئولات عن تجهيز الخيمة من معظم الخامات التى تصنع منها، والمنقولات التى تحتويها، وعليهن أثناء تجوالهن بحيواناتهن الصغيرة أن يجمعن فروع الأشجار المناسبة، والأعشاب الجافة اللازمة لعمل الهيكل الذى يقيمه الرجال، وهذا هو الإسهام الوحيد لهم!

كذلك، فإن النساء يجدلن الحصير، وينسجن الأقمشة، ويضفرن الحبال، وهن يقمن بتغطية هيكل الخيام من الخارج وكسوته من الداخل.

وينتشر الزواج بين العبابدة والبشارية. حتى يتفاعل كل من القبيلتين مع الآخر، فدائما زواج البنت من ابن عمها، أو أحد أقاربها،

ويتم هذا الزواج بناء على اختيار «الأب» للعروس، عند بلوغ الابن سن السادسة عشرة، والفتاة نفس السن.

واختيار الأب للعروس، هو عرف سائد لدى شباب القبيلة، ويستمر معهـا، فإن لم يحدث تفاعل بين الاثنين، يتركها ويتزوج غيرها، لكن في هذه المرة، تكون من اختياره هو!

وتقاليد الزواج تتناسـب مع الحالة الاقتصادية والجغرافية، فالمهر الذى يدفع للعروس «ناقتان» يقدمهما والد العريس، واحدة «مقدم صداق» والثانيـة «مؤخـر» .. وحين يتم الاتفاق لا توجد فـترة خطوبة، وتبدأ مراسـم الزواج، بعـش الزوجية ويكون على شـكل خيمة، بها بعض الأغطية من الصوف وجلد الحيوان، ويسـتمر الفرح سبعة أيام، ولضيق ذات اليد، يكتفى بثلاثة أيام هي «الخميس والجمعة والسبت» .

ويسجل عقد الزواج شيخ القبيلة، ومن العرف السائد إقامة العريس عند أهل العروس «سـنة كاملة» حتى تنجـب طفلها الأول، ثم تذهب معـه إلى قبيلته، أما إذا تأخر الإنجاب، فيتـزوج غيرها، لذلك يمثل تعدد الزوجات نحو ٦٥ بالمائة من حالات الزواج!

(٦)

والحدود المصرية– السـودانية، تحتل فصـولا فى تاريخ الحدود، والمدهـش أن الحديث عن الحدود بين البلديـن قبل أول يناير ١٩٥٦.. كان يعـد دربا مـن دروب الخيانة الوطنية، باعتبـار أن وادى النيل، يمثل وحدة واحدة شمالا وجنوبا.

لكن ذلـك لا يمنع من الإقرار بحقيقة أن الحـدود كانت موجودة، ومنذ زمن بعيد، ويروى أسـتاذ التاريخ يونان لبيب رزق القصة بقوله: «تصور غير صحيح ذلك السائد بين جموع الباحثين في شئون العلاقات المصريـة السـودانية أن اتفاقية ١٩ ينايـر ١٨٩٩، بين مصر و انجلترا هـى التى وضعت خط عرض ٢٢ شمـالا كحدود بين البلدين، فقبل ذلك كان هنـاك خط آخر لتلك الحدود بين عرض كامل، وعلى وجه التحديد ٥٥ من ٦٠ من خط العرض، ولصالح مصر» .

يضيف: «وقبل ذلك بنحو خمسـين سـنة، وتحديدا فى ١٣ فبراير ١٨٤١ ظهرت على الخرائط أول حدود بين البلدين، وهى حدود ارتبطت بالتسـوية الشـهيرة التى تمت بين القاهرة واسـتنبول» .. ومعروف تاريخيا أن هذه التسوية تمت على مرحلتين. مؤتمر لندن ١٨٤٠ والذى وضعـت فيه الدول الكبرى الخطوط الأساسـية، وفرمـان الباب العالى الصادر فى ١٣ فبراير ١٨٤١، والذى جسد قرارات مؤتمر لندن» .

وجاء في الفرمان فيما يخص السـودان القول بأن: «سـدتنا قد ثبتتكم علـى ولاية مصر بطريـق التوارث بشـروط معلومة وحـدود معينة، وقد قلدتكـم فضلا عن ولاية مصر، ولايات مقاطعات النوبة والدارفور وكردفان وسـنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة، ولكـن بغير حق التوارث، فبقوة الاختيار والحكمة و التى امتزتم بها، تقومون بإدارة هذه المقاطعات وترتيب شئونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الأهلين،

وترسلون كل سنة قائمة إلى بابنا العالى حاوية بيان الإيرادات السنوية جميعها» .

ويفسر د. يونان هذا الفرمان بقوله: «وإذا كان هذا الفرمان الشهير لم يشر إلى حدود مصرية سودانية، فلم يكن جنوب الوادى حتى ذلك الوقت قد أطلق عليه السودان، وإنما كان ينظر إليه باعتباره مقاطعات ملحقة بمصر، فإنه أشار إلى حدوده الأخيرة، أو ماكان يعرف وقتئذ بمصر الأصلية، والأكثر من ذلك أن الباب العالى ألحق بالفرمان خريطة تبين هذه الحدود» .

وتؤكد الحقائق التاريخية أن وادى حلفا استمر قبل عام ۱۸۹۹ سواء على المستوى العسكرى، أم الصعيد السياسى داخل نطاق أراضى «مصر الأصلية»، حتى جاءت اتفاقية ١٨٤١، وزحزحت خط الحدود إلى ٢٢ درجة شمالا، وبينما كان وادى حلفا يمثل أولى نقاط مصر الجنوبية على نهر النيل، فقد كانت «حلايب» تمثل أولى النقاط على البحر الأحمر.

ويرصد د. يونان ما نشرته صحيفة الأهرام من أخبار ما بين شهر أبريل ١٨٨٨ ومايو ١٨٨٩، فقد حدث أن أرسل المهديون السودانيون قوة لهم لاحتلال آبار حلايب، ولم تكن مصر تعول كثيرا على هذا التصرف، لو أنها ارتأت أن تلك الآبار تقع جنوب خطوط «مصر الأصلية» .. وقد قوبلت محاولة الاحتلال المهدوى بإجراء عسكرى مصرى عاجل، حيث بعث السردار بقوة عسكرية اشتركت مع بشير بك شيخ قبيلة العبابدة لطرد المهديين من المنطقة، وتنظيفها منهم - على حد تعبير

الأهرام – وإذا كانت هذه المبادرة العاجلة تدل على فهم مصر، باعتبار حلايب مصرية، فإن الإجراءات جاءت في ثلاثة أخبار:

١ – في ١٠ مايو ١٨٨٩: «جاء من حضرة الكولونيل هولد سميث في سواكن، أن طابية حلايب، وهي بلدة تبعد نحو ٢٠٠ ميل من سواكن سيتم بناؤها بعد سبعة أيام، أما الدراويش – ويقصد المهديون – الذين كانوا يحاولون الهجوم على تلك الأنحاء، فقد تأخروا عنها، واتخذوا لهم مركزا في نقطة تبعد عن حلايب بنحو عشرين ميلا، إلا إنه يخشى أن يعاودوا الكرة في الجهات المذكورة، أما قبيلة البشاريين فمنتشرة في طلب المرعي.

٢ – والخبر الثاني نشر في ٢٩ مايو ١٨٨٩ ونصه: «ارتأى سعادتلو هولد سميث باشا قومندان سواحل البحر الأحمر بوجوب مساعدة سكان قرية حلايب مما يسد عوزهم إلى أمد قليل، ويمكنهم من القيام بالأعمال المساعدة في الكسب، وذلك على إثر ما أصابهم من المضار والفاقة في الموقعة التي جرت بينهم وبين الدراويش».

٣ – ونشر في ٣١ مايو.. وجاء فيه: «قرر سعادتلو سردار الجيش المصرى بأن قبيلة البشارية القاطنة جهة حلايب، بلدة بقرب سواحل البحر الأحمر، حفاة عراة، لا يملكون قوت يومهم، وأن حالتهم هذه تستدعي شفقة الحكومة عليهم ومساعدتها لهم، وارتأى أن يتاح لسعادته إنفاق مبلغ ٢٠٠ جنيه في الطرق الضامنة سد عوزهم إلى أجل محدود، وقد عرض قراره على مجلس النظار، فأجاب قراره»!.

ويعلــق د. يونــان لبيب رزق على الأخبار الثلاثــة بقوله: «وفضلا عمــا تضمنته هــذه الأخبار من التأكيــد على تبعية قبائل البشــاريين لمصر، بحربهم ضــد الدراويش، وبطلب المعونة مــن حكومة القاهرة، فإنها قدمت كل البراهين القانونية التي أكدت على مصرية هذا الميناء، وتلك المنطقة من خلال ممارسة شتى ألوان السيادة عليها» .

يضيف: «وفى حالة حلايب - تحديدا - فإن أفخاذ قبيلة البشارية الواقعة شمال خط ٢٢ تتنوع روابطها بمصر، أكثر مما ترتبط بالسودان، والكلام من وثيقة بريطانية تتحدث عن بدنات البشــارية المقيمة شمال خط ٢٢ .. وهى على النحو التالى:

□ جــاء عــن بدنة «الحمــادوراب» .. أن لهم علاقــات متنوعة مع العبابدة في مصر، ويتصاهرون معهم كثيرا، ولهم قرى دائمة فى أسوان ودراو وغيرها من الأماكن على النيل.

□ الأليــاب.. وجــاء عنهم أن لهم نفس الروابط مــع العبابدة التى للحمادوراب.

□ الأمراب.. وجاء فيهم أن لهم علاقات واضحة مع أســواق جنوب مصر، ولم يبق بعد ذلك غير الشــانتيراب الذين جاء عنهم فى الوثيقة «أنهم يتنقلون عبر خط ٢٢ لأغراض قبلية» .

ويصل د. يونان إلى نتيجة مفادها: «لعل ما جاء في هذه الوثيقة يشير إلى حقيقــة لم نكن ندريها من قبل، وهى أن الترتيبات الإدارية لم تتم لأســباب بشرية متعلقة بمصلحة أبناء القبائل المقيمين شمال خط ٢٢..

بقدر ما تمت لأسـباب إدارية تتصل برغبة حكام الخرطوم البريطانيين في التعامل مع ناظر واحد للبشارية الذين آثروا أن يضموهم جميعا فى سلة إدارية واحدة» .!

(٧)

ويمتلك د. «السيد فليفل» صورة ذهنية عامة ترى أنه منذ أن وطئت أقدام المسـتعمرين أرض السودان، سـعوا جاهدين إلى فصله عن مصر، وهو ما ظهر جليا في اتفاق الحكم الثنائي ١٨٩٩، حيث ظهر خط ٢٢، كخـط فاصل بين كيانـي وادى النيل - مصر والسـودان - وقد تتابعت الإجراءات البريطانية الساعية إلى تأكيد هذا الاتجاه.

ويعـدد فليفـل الإجـراءات بقوله: تقليـص عربـي الاتصال بين الجانبين إلى أدنى مسـتوى ممكن، التضييـق على التجار من الجانبين إذا ما سـعوا إلى الاتصال، اسـتخدام مقاسـات مختلفة لخطوط السكك الحديدية، تأسـيس كلية جوردن التذكاريـة بالخرطوم وجعل التعليم فيهـا باللغة الانجليزية، وهو ما أفرز صفوة سـودانية جديدة راحت تبحث - بمقتضى الارتباط الثقافي بالانجليز - عن مسـتقبل للسـودان بشكل منفصل.

ويـرى د. «محمـود أبـو العنين» أن النـزاع حـول مثلث حلايب والشـلاتين ارتبط بعاملين أساسـيين الأول يتمثل فى استقلال السودان عام ١٩٥٦، بعد نحو قرن وثلث من الارتباط السياسـي بمصر، والثانى تظهر آثاره مع الأزمات المختلفة التي اعترت مسـيرة العلاقات المصرية

الســودانية.. ويشير إلى إنه على مدار ١٣٦ سنة منذ أن فتح محمد على السـودان، وحتى اسـتقلاله لم ينظر المصريون إلى السودان إلا من خلال منظور وحدوى، سـواء أن السودان جزء من الدولة المصرية أم بمصطلح وادى النيل، وقد شـارك كثير من السـودانيين فى هذه النظرة، بالرغم من الفترة الاستثنائية للثورة المهدية في السودان.

أما فيما يتعلق بمثلث حلايـب.. فتذكر الحقائق التاريخية الموثقة أنه نشأ بمقتضى قرار وزير الداخلية المصرى الصادر في ٤/ ١١/ ١٩٠٢، وطبقا لهذا القرار، تم وضع المنطقة الواقعة فى الركن الجنوبى الشـرقى لمصـر، والمحانية لسـاحل البحر الأحمر «منطقة جبـل علبه أو مثلث حلايب» تحت إدارة المحليات السـودانية بغرض توحيد إدارة شـئون القبائـل، ولم شمل جماعة البشـارية المصرية، مع كتلتهم الرئيسـية الواقعة داخل الجانب السودانى.

ووفقا لهذا التعديل الإدارى، تم تحديد مناطق البدو فى الإقليم لتضم ما يعـرف بمثلث حلايب المصرى، وقاعدته تقـع على خط ٢٢ شمالا، وطوله نحو ٣٠٠ كم، وضلعه الشـرقى يقع على سـاحل البحر الأحمر بطول ٢٠٠ كم، بحيـث يبدأ من جنوب حلايب على خط الحدود حتى بئر الشـلاتين فى الشـمال، أما الضلع الغربى، فهو متعرج، لكن على شـكل خطوط مستقيمة تقريبا، حيث يمر الخط ببئر «منيجة» ثم جبل «تجروب» .. ثم جبل «أم الطيور» فجبل «الديجا» .. حتى يصل إلى خط التقاطع مع خط الحدود السياسية.

– والمثلث الذى يشكل قيام حلايب، يبلغ وفق التحديد ١٨ ألف كيلو مترا وهى مساحة تقارب مساحة دلتا النيل، كما يمتلك جبهة بحرية على ساحل البحر الأحمر بطول ٢٠٠ كم، مواجهة تقريبا لمنطقة الحجاز بالسعودية. ويقدر عدد سكانه وفق إحصاء ١٩٩٧ نحو ١٣,١١٨ نسمة ينتمون إلى قبائل البشارية والعبابدة، وأعداد قليلة من قبائل أخرى، ويشكل البشاريون نحو ٧٠٪ من السكان.

– مثلث جبل «بارتازوجا».. وقد نشأ بمقتضى القرار الإدارى لوزير الداخلية المصرى في ٤ /١١/ ١٩٠٢. وإعمالا على نفس المبدأ القائم على فكرة توحيد القبائل، حيث تقرر وضع قبائل العبابدة التى تعيش جنوب خط ٢٢ شمالا لنفس النظام الإدارى المصرى التى تخضع لهم كتلتهم الرئيسية التى تعيش على الجانب المصرى من خط الحدود.

وهذه المنطقة تقع غرب مثلث حلايب على الجانب السودانى وتشكل جيبا داخليا حبيسا داخل الصحراء، مساحته غير دقيقة، لكنها تقترب من تُسع مثلث حلايب، وتعتبر منطقة جبلية وعرة، حيث تبدأ عندها فروع وادى العلاقى، وتقطنها غالبية من قبائل العبابدة ذات الأصول المصرية.

(٨)

كنت فى الخرطوم، عندما صرح الرئيس السودانى عمر البشير لصحيفة خليجية في شهر أغسطس ٢٠٠٢ بأن «مثلث حلايب سودانى،

وأن الأمــر برمته معروض في مجلس الأمن» وقتئذ سمعت تفسـيرين، أحدهما دبلوماسـى من الدكتور مصطفى عثمان وزير الخارجية بأن الأمر لا يسـتحق زوبعة، وربما أرادت الصحيفة «إشـعال الموقف» فطرحت المسـألة على هذا النحو.. نحن – والكلام لعثمان – نريد منطقة المثلث، منطقــة تكامل، ودافع بشــدة عــن وجهة نظر البشــير التى تصب فى ذات الاتجاه.

أمــا التفســير الثانى.. فســمعته مــن بعض المحللين السياســيين الســودانيين الوحدويــين.. بأنــه تآمــر أمريكــى علــى العلاقــات المصرية - السودانية، واسـتغلال للموقف المصرى من اتفاق مشاكوس الذى وقع بين النظام السودانى والحركة الشعبية، لأن وجهة نظر مصر كانت تأخذ بالحل الشامل وعدم استبعاد أو إقصاء أى قوى سودانية من هذه القضية.

وقــد ارتبــط النــزاع على الحــدود فى مثلــث حلايــب، بأزمات العلاقات المصرية الســودانية، وفترات التوتر بعد اســتقلال الســودان عــام ١٩٥٦، فقد قــادت حكومة الثورة فى مصر – كمــا يقول الباحث د. محمــود أبو العينين – مفاوضات صعبة مــع الجانب البريطانى من أجل تحقيق الجلاء عن وادى النيل كله، ســواء فى مصر أم الســودان، وتم البدء بالســودان، حيث انتهت المفاوضات بتوقيع اتفاقية السودان فى ١٢ فبرايــر ١٩٥٣، وأعقبها الوصــول إلى اتفاقية الجلاء فى مصر فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤.

غير أن الملابسات التى أحاطت بعملية تقرير المصير فى السودان، وما صاحبها من هجمات إعلامية متبادلة بين البلدين، وما أسفرت عنه من تصميم السودانيين على الاستقلال، وتخلى الاتحاديين عن مبدأهم وهو الاتحاد مع مصر.. كل هذه الأوضاع ساهمت فى تبديد أحلام وحدة وادى النيل.. ومع رصد الأزمات صعودا وخمودا نرى:

١ - ينشب النزاع ويتصاعد فى حالة وصول حكومات سودانية مناوئة لمصر، ونرصد حكومة عبد الله خليل وحزب الأمة ١٩٥٨، ووصول الجبهة الإسلامية للحكم عقب انقلاب يونيو ١٩٨٩.

٢ - يخمد النزاع حول حلايب فى فترات استقرار العلاقات.

٣ - فى كل الحالات.. تسعى مصر وهى تدير النزاع إلى عدم تدويله، والسيطرة عليه وضبطه فى الإطار الثنائى، حفاظا على خصوصية العلاقة بين البلدين.

(٩)

وأنقل شهادتين

هما تأكيد على هذا التلاحم المصرى السودانى، وتأكيد فى المنظور السياسى والحدودى على مصرية حلايب وشلاتين.

الأولى: لسفير السودان السابق فى مصر أحمد نور، والتى اعترف بها فى «ندوة الحدود المصرية السودانية بالقاهرة عام ١٩٩٧» وهى تفيض رقة وحميمية، هى طابع السودانيين الوحدويين.

يقول: «أشعر بحساسية بالغة عندما أتحدث في موضوع الحدود، لا سيما وأنا أقيم في قرية على الحدود، يقع نصفها شمال خط ٢٢، ونصفها الثاني في جنوبه! .. وعلى رغم هذه الحساسية فقد أخذت من كلا البلدين خيرها وإيجابياتها، فقد تعلمت في مصر، عندما كان التعليم فيها منارا للعالم الإسلامي، واشتغلت في السودان، عندما كان العمل فيها هدفا لكل مصري وسوداني» .

يضيف: «هذه ليست انتهازية، لأنني لازلت أعتبر مصر والسودان بلدا واحدا، ولا شك أنني عانيت من ذلك، وأعتقد أن وجود السكان والقبائل في مناطق الحدود يساعد على الاستقرار» .

أما الشهادة الثانية، فصاحبها رجل سوداني جميل، جاب السودان شرقه وغربه وجنوبه وشماله كرجل تعليم، لكنه استقر في عام ١٩٩٠ في المثلث، ويدير مدرسة ابتدائية في «أبو رماد» ولم يبرح المنطقة منذ ذلك التاريخ.

هو فنان تشكيلي فطري.

أسأله: هل أنت سوداني؟

يجيب: لا

أعاود السؤال، وهل أنت مصري؟

يقول: لا

إذن.. أنت من؟

يقول الفاضل خالد أشـــهر «معلم» فى المثلث فى العقدين الأخيرين، أنــا ابن هــذه المنطقة، أعلــم أبناءهــا، الذين تخرج فيــه الكثيرون، وعادوا ليعملوا معى فى المدرســة، أنا مصرى ســودانى، أو قل سودانى مصــرى، أقترب من الســتين، اخترت الحياة فى هــذه المنطقة الأثيرة إلى نفســى وعقلى، أرســم عندما تتاح الظروف، درست التاريخ جيدا، وخرجــت بنتيجة: أننى من هنا، وأولادى هنا، بالرغم من أننى ولدت وسط الســودان!

..

يبقى القول:

هذه أرض أجدادى.. ومفتاح الحل لأحفادى.!

الأقصر: الحياة والخلود

يرن في أذني قول د. سمير فرج رئيس مدينة الأقصر - هاتفيا - نحن أولى بتاريخنا، بتراثنا، وأحق بحضارتنا.

ونفس الجمل القاطعة التي تحمل معنى التحدى، أسمعها من عاشق الأقصر الفتى الشاعر أحمد فؤاد جويلى. وكأنهما اتفقا على هذه الحماية المستغرقة في حب هذه الأرض، حتى وإن كانت نزعتهما شديدة الشوفينية، هنا المهم الوعى بالتاريخ، بالأرض، والأكثر بالوطن.

حزمت أمرى للسفر إلى الأقصر، مدينة الحياة والموت، والأكثر شمسا وخلودا، وكنت قد زرتها خلال الشهور الخمسة الماضية ثلاث مرات، لكن هذه المرة تكون الزيارة مع سبق الإصرار والترصد، للتعامل التاريخى والمستقبلى مع المدنية، الناس، الأرض، الأثر.

وأذكر، وأتذكر، أول زيارة لى للأقصر فى شتاء ١٩٦٥، عندما كنت طالبا بمدرسة المنصورة الثانوية، وكان ضمن منهج الدراسة - حينذاك - زيارة الأقصر وأسوان، وذلك لتنشيط الذاكرة التاريخية، وخلق حالة الانتماء لهذا الوطن.

وأتذكر دموع جدتى، وهى تثنينى عن هذه الرحلة، لأننى سأغيب عنها لأول مرة خمسة عشر يوما، «أكيد، أكيد ياولدى المشوار طويل، والبلاد بعيدة، وأنت مازلت صغيرا، تبكى بدموع حارة، وتقسم بغربتى»!.

فى حين شـدت من أزرى أمى، وقالت لجدتى : «يا خالتى، خليه يشوف الدنيا.. ويتعلم» !

تذكرت هذا المشـهد العاطفى وأنا على متن الطائرة، وشـتان ما بين الزمان ووسـيلة السـفر، منذ أربعة عقود كانت الرحلة تسـتغرق من المنصـورة إلى الأقصر نحو أربعة وعشـرين سـاعة، والآن بين القاهرة ومحطة وصول.. ساعة !

يوقظنى من غفوتى وذكرياتى صوت احتكاك عجلات الطائرة بأرض مطار الأقصر، وتأهب كل ألوان البشر لمغادرة الطائرة.

(١)

يواجهنى شـروق الشمس، إنه صباح جديد يطل على مدينة الحياة والموت.. لقد بعثت فىّ الشمس الحياة، وفى لحظات الإشراق، يستشعر الإنسان جمال الصباح المنتصر للحياة.

وشروق الشـمس وغروبها فى الأقصر يمثل نقطة التقاء بين سلسلة ثقافـات دينية ثلاث، فغروب الشـمس فى عالم الأمـوات يمثل ثقافة الديانة المصرية القديمة، وعودة الشـمس مـن رحلتها الغاربة، تعنى بعث الدفء والحياة، وهى تمثل فى العقيدة المسـيحية «عودة المخلص» .. أمـا فى الثقافة الإسـلامية، فالمـوت والحياة ربط بـين ما هو باق، وما هو زائل، إنها تعادل الزمن التاريخى مع الزمن الكونى.

اللحظة

لحظة الشروق

والشعور تحديدا: مع وهج النور الشفاف، تجسد الجمال، والأفق الخالد بالأقصر امتد فوقه حركة الشمس، ويقطعه النهر المتدفق فى لحظة الشروق!

وتتقاطع مع اللحظة الشاعرة، واللقطة الساحرة المبشرة بالحياة، مع شروق شمس يوم جديد فى الأقصر حال وصولى.. صوت الشاعر جويلى، وقوله:

من التراب أقلع الشجر
وأقلعت حقول
أتى المزارعون
مضى ربيع لدحهم إلى الافول
وغاصت الجذور نحو باطن.. الثرى
وينجلى الجدار عن نقوش قارة جديدة من النخيل والسنابل
وطار – فى النقوش – سرب طير
وجاء صوته مموسقا.. مغردا
لك الجمال أيها الوريث
لك الجمال...

(٢)

وتبدأ تباشير الرحلة من اتصالين هاتفيين لسمير فرج وأحمد جويلى حول هذه الحملة المستمرة فى الإعلام الفرنسى، وكأن قدرنا أن «نكون رد فعله» !

الحملة تهاجم مشروع تطوير الساحة الأمامية لمعابد الكرنك حيث حولتها العشـوائيات إلى بؤر من الإهمال، وتهاجم – أيضا – ما يحدث في البر الغربي، وتصف من سـيتم نقلهم إلى مسـاكن جديدة بها مياه وكهرباء بأنه «تهجير» .

حملة الفرنسـيين في الميديا الفرنسية، ظاهرها الرحمة، وباطنها التضليل.

في الظاهر حماية الآثار المصرية باعتبارها تراثا إنسانيا عالميا.

والباطن.. مصالح البعثة الفرنسية في الأقصر، حيث تحتل مساكنهم أهم وأجمل بقعة على النيل، في مواجهة الدير البحري، وتغلق الطريق على معابـد الكرنك في رؤيته للبر الغربـي، والدير البحري، وتقف حجر عثرة أمام الرؤية المقدسة لمساكن الأموات.

ونقطـة البداية في التطوير الدراسـة التي أعدها البرنامج الإنمائي للأمـم المتحدة – والتي تسـتهدف التخطيط المسـتقبلي المتكامل لمدينة الأقصر حتـى عام ٢٠٣٠ بأبعـاده الثقافية والاقتصادية والسـياحية، وبحث متطلبات المدينة واحتياجاتها المستقبلية على عدة مراحل.

ومن أهم بنود هذه الدراسـة تفريغ المناطق الأثرية من العشوائيات المنتشـرة فوقها وبجوارها، خاصة وأن الأقصـر مقامة على مدن أثرية كاملـة لأقدم حضارة عرفها الإنسـان، وتسـتهدف الخطة – كما يقول د. سمير فرج – إعداد المدينة كمتحف مفتوح.

ظلت الدراسة حبيسة الأدراج سبعة أعوام لعدم وجود موارد مالية، خاصة أن تكاليف تنفيذها يصل إلى سبعة مليارات جنيه.

بدأ سمير فرج – بإرادة المقاتل وروح الفنان – في إزاحة التراب عن هذه الخطة بعد أن عرضها على رئيس الوزراء د. أحمد نظيف، ومع تحمسه بدأ في إزالة عشوائيات وفقا للقرارات الإدارية التي كانت متجمدة، لا سيما وأن القرار الجمهوري رقم ٢٥٣ لسنة ١٩٨٩ يعتبر «الأقصر مدينة ذات طابع خاص».

بدأت حركة التطوير تدور مع حماس سمير فرج، وكان في قلبها «تطوير الساحة الأمامية لمعابد الكرنك» التي تستهدف إعادة الكرنك إلى ما كان عليه قبل خمسة آلاف عام.. وباعتبار أن الفرعون كان يقف في بهو الكرنك ساعة الغروب ليطل مباشرة على معبد الدير البحري في البر الغربي عبر نهر النيل.

واقتضى الأمر شجاعة إزالة ما يقف أمام بهو الكرنك، وبالتالي، فقد تمت إزالة المباني الإدارية في المنطقة، منها: تفتيش الآثار، ومبنى الصوت والضوء، ومركز الشباب، ومدرسة إعدادية، واستراحة لموظفي هيئة الآثار، إضافة إلى ٤٨ منزلا ومحلا عشوائيا تقع جميعها في مواجهة المعابد، وتعوق الرؤية.. وقد تمت إزالة ٤٢ بازارا ومنزلا.

ومطلوب أيضا.. إزالة مركز شرطة الأقصر، ومسجد وكنيسة وقصر الثقافة، ومساكن البعثة الفرنسية التي تسمى «القرية الفرنسية»

والتي تقع على النيل مباشرة وتحجب الرؤية عن معابد الكرنك، فضلا عن منزل الأثرى الفرنسي جورج لوجران المتوفى عام ١٩١٧.

وعند قيام المجلس الأعلى لمدينة الأقصر بطلب إزالة المساكن المصرية التي يقيم فيها الفرنسيون فضلا عن منزل لوجران.

قامت الدنيا ولم تقعد. !

رفض الفرنسيون بشكل قاطع الإزالة، لأن منازلهم مقامة على النيل مباشرة، ورفضوا جملة وتفصيلا مشروع التطوير، وصوروا الأمر في الميديا الفرنسية على أنه استيلاء على الأملاك الفرنسية، بالرغم من أنها مصرية مائة بالمائة! وقالوا لسمير فرج الذى نقل لى الحكاية بمرارة «البيوت موجودة منذ سنين.. لماذا تريدون – الآن – إزالتها» . !

كما رفض الأثريون الفرنسيون «من باب الوصاية» إزالة المساكن العشوائية المقامة فوق مقابر الأشراف والتي تصل إلى ٦٠٠ مقبرة بمنطقة القرنة بالبر الغربي. !

وتتوالى الحملة المسعورة، ويتم استعداء اليونسكو على مصر، وآثار مصر، وعلى سيادة مصر. !!

وتصل رسالة إلى رئيس هيئة الآثار المصرية د. زاهي حواس من اليونسكو مفادها بأن ما يحدث في الأقصر يضر بالآثار المصرية التي هي ضمن التراث العالمي الإنساني. ! .. ولأن زاهي حواس مصرى ينتمي فكرا وقلبا وعقلا إلى مصر.. فقد كان رده قاسيا «بنينا حضارتنا

منذ سبعة آلاف عام، ونعرف جيدا كيف نصونها، ونعتز بها، ونحافظ عليها» !

تتواصل الحملة وتشتعل حول بيت الأثرى الفرنسي جورج لوجران، وقد تم تشييده على ضفاف معبد الكرنك عام ١٩١٦.. وكان لوجران - الذى توفى عام ١٩١٧ بالأقصر - ونقل جثمانه إلى القاهرة ليدفن فيها - قد عمل مفتشا للآثار المصرية مع بداية القرن العشرين، وقد اعتبر الفرنسيون المحدثون هذا البيت «أثرا» .. ويذكر هنا الجهود الكبيرة التى بذلها لوجران فى عمليات استكشافية كان لها نتائجها الهامة فى البحث عن الآثار المصرية، وسجل اسمه فى تاريخ الإنسانية، وهذا أمر لا ينكره الأثريون المصريون.

فضلا عن أن البيوت التى يسكنها الفرنسيون والتى شيدت فى العام ١٩٦٧، أقيمت «خطأ» على الميناء النهرى الذى كان يربط معابد الكرنك ونهر النيل، ومعه القناة الرئيسية للميناء، حيث كانت تبحر الزوارق الثلاثة المقدسة للإله آمون وزوجته من الميناء إلى البر الغربى.

ويعلق رئيس قطاع الآثار المصرية صبرى عبد العزيز على «الضجة» بقوله: «بيت مسيو لاجران ليس أثرا يجب الاحتفاظ به، سنزيل المنزل لإحياء الميناء القديم الذى يقع تحته، والغرض فتح الرؤية أمام معابد الكرنك» .

بينما يرى مدير قطاع الآثار بالأقصر منصور بريك «أن الضجة افتعلت للإبقاء على المنازل التى يقيم فيها الأثريون الفرنسيون، الذين

يــرون في هدمها ضعف منهــم.. هي حالة عناد لا أكثــر أو أقل، هذا بالرغم مــن أن دومنيك فالابيل مدير المركز الفرنســي بالقاهرة قد وقع على وثيقة عام ١٩٦٧ بهدم منزل لوجران» !

(٣)

وفي إطار الحملة المغرضة ضد مصر في الميديا الفرنسية والتي دفعت اليونسكو إلى اتهام مصر بتشويه الآثار، زعموا أن مواطنين من الأقصر بعثوا لهم برســائل استغاثة لإنقاذ آثار الأقصر من محاولات تشويهها تحت لافتة «التطويــر» .. ومن هذه المزاعم أن نقل مواطني البر الغربي في منطقــة القرنة من بيوتهم إلى بيوت أخــرى، هي عملية «تهجير» جديدة. !

وعبرت النيل إلى البر الغربي وشاهدت البيوت القديمة.. والجديدة وقمت بزيارة لمنزل قديم يملكه الحاج محمد أبو طايع، ويبلغ من العمر ٩٣ ســنة.. لكنه قادر على الحركــة، صاحب ذهن مرتب وصاف، وهو يقود حركة المعارضة لنقل البيوت من فوق الجبانات إلى القرية الجديدة فــي نجع الطارف فــي حين أن حفيده الذي يلقــب «بأحمد العمدة» له رأي آخر.

الجد محمد أبو طايع حالــة فرعونية خالصة. أقرب إلى غصن البان القوي برغم السنين.

يحكي عن علاقته بكارتر مكتشــف مقبرة توت عنخ آمون، وحسن بك فتحي المعماري المصري العظيم، صاحب نظرية عمارة الفقراء.

يقـول الجد محمد : إن منزله المبنى من الطـوب اللبن، عمره الآن ١٢٠ سـنة، ورثه عن أبيـه، ويعيش فيه أولاده وأحفـاده، وهو على مسـاحة كبيرة، ومثبت فى خارطة الآثار، وأيـام الملك فاروق صدرت قرارات إزالة لكل بيوت البر الغربى، ما عدا هذا البيت، الذى يقع فى نجع «الحروبات» وهو واحد من نجوع القرنة.

ويؤكـد، أنه بوصفه «دلال النجـع» .. والدلال هنا «بمعنى الحكيم الراشـد» .. وليس السمسـار، هو الذى يحكم فى المنازعات بين الناس فى النجع.

لكـن يا جدى الحاج - هكذا ناديته - تحت بيتك سـرداب، وأكيد بالسـرداب آثار، لذلك، أنت وغـيرك لا ترغبون فى ترك بيوتكم وهى بلا مياه أو كهرباء.!

ينتفض الجد من جلسـته، قائلا فى هياج، السرداب ننام فيه شتاء بلا أغطية، وصيفا بلا مراوح!

وأخذنى من يدى، وراح يعدو كشاب فى العشرين من العمر، يعرف طريقـه فى الظلام، واسـتخدمنا - نحن - البطاريـات، ونور أجهزة الموبايل لنعرف طريقنا الذى يعرفه هو جيدا.

توقـف وهو يقول: «فيه إيه فى السـرداب، قـش، أرز، تموين، فين الآثار» ؟ ويضيف : «الشيخ أحمد الطيب وأخوه محمد أخذوا قطعة واسعة، بنوا فيها قصور، ومع ذلك لم يتركوا بيتهم.. ليه؟ »

نعود.. لنشرب الشاى، يحكى الجد عن أيام زمان، الذى كان العامل يتقاضى فيها أجرا من مستر كارتر، وينطقه «كات» .. مائة فضة! .. أما أيام حسن بك «يقصد المعمارى حسن فتحى» فكان رجلا كريما، يدفع للعامل – ومنهم أنا – ثلاثة قروش يومية.

يضيف: «الناس أيام زمان كانت تعبانة ماليا، لكن الدنيا كانت زينة» .. أما هذه الأيام «الدنيا هاصت ولا واحد طايق التانى» .. فضلا عن «التليفزيون خسر الناس، والبطالة زادت بين العيال والرجالة والنسوان» .!

وحملنى الجد محمد أبو طايع رسالة إلى «حاكم المدينة».. يقصد د. سمير فرج.. بأنه لن يترك بيته إلا إذا حصل على مساحة أرض كبيرة تساوى مساحة بيته الحالى.!

وينقل لى حفيده «أحمد العمدة» رأيا آخر، مخالف لرأى جده، ويقول: «نحن سوف ننتقل إلى البيت الجديد فى نجع الطارف لأنه مسكن صحى تتوفر فيه المياه النقية والكهرباء والصرف الصحى، ولابد من ترك هذه المنطقة الأثرية.. على الأقل سنتخلص من تهمة سرقة وتهريب الآثار» .!

وأمّا فى هذه القضية تحديدا، فقد شاهدت على الطبيعة المنازل الجديدة، وهى لا تبعد كثيرا عن نجوع القرنة، وهى تكون فى مجملها قرية جديدة، حيث تقع مساحة البيت الواحد فى ١٧٥ مترا، منها ٧٥ مترا مبانى، ومائة متر كحوش مسور.. فضلا عن أن القرية

الجديدة - كما يقول د. سمير فرج - تضم مدرستين وقسم شرطة ومركز شباب وسوقًا تجاريًا، وقد روعى استخدام عوامل الطبيعة فى البناء، بحيث تشكل القرية جزءًا من المنظور العام للمنطقة الجبلية.

(٤)

وقبل أن يطوى التطوير صفحة البيوت المقامة منذ مئات السنين على مقابر البر الغربى، تتدخل «يد التوثيق» لفنان تشكيلى شاب «عمار أبو بكر الصديق» والذى يعمل معيدا بكلية الفنون الجميلة بالأقصر، راح يسجل بريشته هذه البيوت الطينية، يستنطقها، يخاطبها، وتخاطبه، يحولها إلى لوحات من «لحم ودم» .. وشاع بين أطفال النجوع أنه منحاز للبيوت الطينية، بعد أن كان الأطفال من أبناء الميسورين يتباهون ببيوتهم المبنية من الطوب الأحمر والمسلح، ولم يكتف عمار «٢٧ سنة» بذلك، بل وعلى حد قوله : «قمنا بإنشاء جمعية بقرية المحروسة لرعاية التراث، تضم فى عضويتها من يعملون بالأدب والإعلام والمسرح والعرائس.. وبالطبع الفن التشكيلى» .

يضيف: «وتنحصر مهمة هذه الجمعية فى رعاية التراث القديم، ومحاولة حمايته ورصده من خلال الطراز المعمارى القديم والعناصر البيئية التى تعكس تأثر الفن بالمقيمين فى هذه القرى، وقد تم عقد ورش عمل للأطفال لتربية جيل جديد يستطيع الحفاظ على هذا التراث البيئى الخالص الذى يعكس طبيعة ثقافية خاصة، والمهدد بالانقراض،

وأنتجـت هذه الـورش العديد من الأعمـال الفنية شـديدة التلقائية، والمعبرة بشـكل صادق عـن الزمان والبيئة، وأخذنا هـذه التصميمات، وأعدنا تنفيذها عن طريق الحرفيين التلقائيين.

(٥)

تصل بعثة اليونسـكو إلى الأقصر، متزامنة مع زيارتى، وتضم رون فان أورس «هولندى الجنسـية» ويعمل رئيسا لقسم البرامج المتخصصة وعضوا فى لجنة الحفاظ على التراث العالمى، والدكتور كريستوفر يانج «إنجليزى» وهو أثرى متخصص فى إدارة المواقع الأثرية.

وقامـا بجولـة فـى مدينـة الأقصـر، ومناطقهـا الأثريـة برفقة د. سمـير فرج، كمـا قاما بزيارة الـبر الغربى، وقـد تابعت البعثة عن قـرب، ولاحظت دقة فحصهما لكل صغـيرة وكبيرة، وتصويرهما لكل شىء، وكتابة ملاحظاتهما، وكأنهما «قاضيان» . !

وكان علىّ مواجهة البعثة، بإحسـاس مصرى، قبل واجبى المهنى كصحفـى، ولا أنكر أنها كانت مهمة صعبة فى الحصول على تقريرهما قبل أن يرفعاه إلى رئاستهما فى باريس.. لكنهما أكدا لى بداية:

«أن من حق السـلطات المصريـة إدارة مشـروعاتها لتطوير المناطق الأثريـة، وأن زيارتهما لم تكن بقصد التدخل، بل للمتابعة، والوصول إلى إجابات لتساؤلات وردت فى خطابات من مواطنين مصريين يعيشون فى الأقصر، زعمت تعرض الآثار المصرية للخطر» !

ونفى رون ما تردد من أن اليونسكو قد أرسلت خطابا شديد اللهجة إلى د. زاهي حواس، بل كانت رسالة تحمل أسئلة، وقد جلسنا معا.. في جلسة ودية، وكانت نتائجها إيجابية.

في حين قال د. كريستوفر: إن الحكومة المصرية تعهدت بقبول المسئولية في الحفاظ على تراثها الإنساني، فضلا عن حقها في وضع خطط تطويرية لمناطقها الأثرية، بالتشاور مع مركز التراث العالمي، التي تحتل فيه الآثار المصرية موقعا متميزا.

وأكد أنه من حق الحكومة المصرية إزالة العشوائيات، بل ومنزل الأثرى الفرنسي جورج لوجران، لأنه أقيم منذ البداية في المكان الخطأ، كذلك ما يسمى بالقرية الفرنسية.

وإن كان رون قد تمنى لو تم تفكيك منزل لوجران ونقله إلى مكان آخر.. تعبيرا عن الاعتراف بجهوده الاستكشافية التي تمت في بداية القرن الماضي.

- وعن نقل مواطني البر الغربي، قال رون: إنه برغم وجود هذه المنازل على موقع أثرى هام.. إلا إنه يتفهم حنين المواطنين إلى منازلهم الذين عاشوا فيها عشرات السنين، ويتمنى على الحكومة المصرية أن تقيم مع المواطنين حوارا قبل نقلهم إلى موطنهم الجديد في نجع الطارف.

ويعلق رئيس قطاع الآثار المصرية صبرى عبد العزيز على اعترافات بعثة اليونسكو بقوله: «إنه من الإجحاف إنكار جهد الفرنسيين في

عمليات الاستكشاف، وإن التخطيط يشمل إقامة متحف كبير، سيتم في جزء منه الاحتفاء بكل الذين ساهموا في عمليات الاستكشاف ومنهم لوجران وشيفرلييه وأوجست ماريت» .

يضيف: «لقد جاءت البعثة بفكرة خاطئة عن التطوير، لكنها تعود بانطباع إيجابي بعد أن شاهدوا كل شيء»، وكنا واضحين معهم، لا سيما وإن التطوير لايهدد التراث الإنساني، بل هو لأجل الحفاظ عليه، بل وإن السلطات المصرية دعت خبراء اليونسكو للمساهمة في تطوير المناطق الأثرية».

(٦)

ولأننا في مدينة الحياة والخلود، الشروق والغروب، وكل ذات فلسفة خاصة ورؤية، ساقتني قدماي بعد يوم حافل في شمس الأقصر الملتهبة إلى حافة النيل، حيث الشمس في طريقها إلى الرحيل.

هي راحلة إلى الغرب حيث مدافن الملوك والملكات والأشراف، بل وإن مدينة العمال التي تبلغ عدد مقابرهم عشرين ألفا وهم الذين شيدوا هذا التراث الإنساني المبهر.

وفي اللحظة.

لحظة انحسار الشمس في رحلتها اليومية.

يشعر الإنسان برعشة غريبة.. هي رهبة ممزوجة بالسكينة مع جلال الليل.

وفي لحظة سقوط الشمس على الجبل في البر الغربي، يبدو الجبل وكأن يد فنان قد حولته إلى جداريات.. لكن الحقيقة أن من رسم ونقش ونحت هي الشمس بدرجاتها المتباينة ذات اللون الأحمر في ساعة الأصيل.

إنها لحظة اكتسى فيها النهر والجبل بآخر ضوء، فتعطي الرهبة والسكينة في آن.. وتدفع الإنسان إلى التأمل العميق، وتصل به إلى إثارة السؤال المفتقد.. لقد عرف الأجداد ما لم نعرف.. لقد توصلوا إلى الحقيقة. !

ويصل إلى أذني في هذه اللحظة المقدسة وميض صوت الشاعر:

من الوميض، والرعود، والزلازل
يدق جرسٌ
يدق في السماء
وراقد يغوص في النقوش
يحرك العيون والأنامل
...
تدب في العروق رحلة الدماء
يسير برهة
وينفض الغبار عن يديه
ويستحم في بحيرة البقاء.. !

(٧)

أستفيق من لحظة تأمل ما بعد الحياة، لأعود مرة أخرى للحياة..

لأن فيهـا ما يسـتحق الحياة، أعود إلى نهار يسطع على الأقصر التى تحولـت إلى «ورش عمـل» فـى كل الاتجاهـات، فى منطقـة الآثار، وفى أنحاء المدينـة التى تحولت ألوان مبانيها إلى لون «ثمرة الدوم» .. وتم اختيار هذا اللون حتى لا يطغى على ألوان الآثار والمعابد.

ومع د. سمير فرج أجد تسـاؤلا وقد طرح نفسـه دون ترتيب: هل الأمانى ممكنة؟!

يقرر فى إجابة سريعة وقاطعة.. نعم الأمانى ممكنة!

لقد فتحت على نفسك النار من كل الاتجاهات، من أصحاب المصلحة فى عـدم التطوير، من أصحـاب البازارات، وربما مـن رجال الدين، مسلمين ومسيحيين، من مهربى الآثار، ومن اليونسكو؟!

ما الحكاية

هل تظن أنك مازلت مقاتلا فى القوات المسلحة، أنت هنا على أرض عمرها آلاف السـنين بكل تفاصيلهـا وموروثاتها، يضاف إليها عيوب هذا الزمان.!

ما الحكاية يا دكتور؟

يقرر د. سمير فرج رئيس المجلـس الأعلى لمدينة الأقصر، ويكرر إن الأمانـى ممكنـة، والأحلام يبـدأ تنفيذها بالخطـوة الأولى، وكلها تصب فـى إعادة الوجـه التاريخى المشـرق والحضـارى الرائع لمدينة الخلود، الأقصر، والوصول إلى ما كانت عليه قبل خمسـة آلاف عام! .. وأن تتحول إلى «متحف مفتوح» يليق بشعب مصر وحضارته.

يستمر فى الحكاية.. الحكاية - يا سيدى - واضحة، خطة أعدها البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة لتطوير مدينة الأقصر، وقد ظلت حبيسة الأدراج سبع سنوات، نفضنا عنها التراب بعد زيارة رئيس الوزراء أحمد نظيف للأقصر وبرفقته ١٢ وزيرا فى أول يناير ٢٠٠٤.

والخطة تصل بنودها إلى ٢٨ بندا، كلها تبدأ بـ «سوف» كان علينا أن نضعها على أرض الواقع، ونبدأ، بروح المقاتل، بدافع الإنجاز، بالإرادة، بالدعم الحكومى، والذى لحقه - مؤخرا - الدعم الشعبى.

بدأنا:

☐ معابد الكرنك تقع على مساحة ٢٥٠ فدانا، وهى أكبر آثار الدنيا، علينا أن نعيد الموقع لما كان عليه، التكلفة ٦١٠ ملايين جنيه وتبلغ تكاليف إعادة طريق الكباش نحو ٢٤٠ مليونا تم تدبيرها من وزارة التعاون الدولى.

☐ نستهدف رفع عدد السياح من ٣,٥ ملايين إلى ٤ ملايين فى العام.

☐ نتجه نحو الظهير الصحراوى، باستثمارات صناعية فى ٢٥ ألف فدان، فضلا عن الاستثمارات الزراعية فى ٤٠ ألف فدان، والبداية ١٠٠٠ فدان لمستثمر سعودى.

☐ مرسى نهرى سياحى فى منطقة الطود، سيكون أجمل من خليج نعمة بشرم الشيخ.

☐ أقمنا طريقا دائريا حول الكرنك بلغت تكاليفه ١٢ مليونا.

☐ نقوم بتطوير فكرة الأجداد الفراعنة فى سحب المياه الجوفية،

هـم حفروا خندقا، نعيـد حفره مرة أخرى باسـتخدام التكنولوجيا، ويتكلـف ٥٠ مليونا، ٤٠ مليونا من المعونة الأمريكية و ١٠ ملايين من وزارة الثقافة.

□ أقمنا مركز النوبة الحضارى، حيث يقيم ٢٥ ألف نوبى بالأقصر منـذ التهجـير الأول عـام ١٩٣٣، وندرب فيه الفتيـات على الحرف البيئية، مع تجهيز نموذج لقرية نوبية سياحية بالبر الغربى.

يضيف.. وكما ترى نعيد تخطيط ميدان محطة السـكك الحديدية، مـع إعـادة تطويرها وتجهيزها على أعلى مسـتوى لتتـلاءم مع وجه الأقصر، مع توسـيع الشـوارع وتشـجيرها، وتغطية أسقف الأسواق، بأسقف ذات شكل جمالى تتناسب والروح التاريخية والأثرية للمدينة.

وأؤكد لك - والتأكيد لسـمير فرج - أن الأمانى .. ممكنة.! بل كل الأمانى ممكنة.

(٨)

وإذا كان د. سـمير فـرج يرى «أن الأمانى ممكنـة» ..فالأقصر تعج بمبدعيها، وعاشقيها، ومجاذيبها، ودراويشها، الذين يكتبون القصة والشـعر، ويبدعون مسرحا راقيا، وفنا تشـكيليا يوثقون به اللحظة، لعلهم يلحقون بأجدادهم.

منهم درويش كبير، اسمه «حسين خليفة» كان أول من نبه إلى الاهتمام بالـتراث الشـعبى المتناثر فى حكايات الجدود والجْـدات، وفنون القول التلقائى. وحسين، وهو قاض كبير، كان المحرك الأساسى لحركة الأدب

فـى الأقصر منذ سـبعينات القرن الماضـى، بدأ شـاعرا متوهجا، عرفته القاهرة، وكتب عنه فؤاد حداد، ودعاه صلاح جاهين للإقامة فى القاهرة، لكنه لفظها، أو قل لفظته، فعاد للأقصر، ينشر، ويكتب، ويعلم.

والمدهش.. أن إنتاجه على مدار ثلاثة عقود، والذى كان يعده للنشـر، قـد احترقت اسـطوانته في الكمبيوتـر! وضاع الآخر بـين أدراج مكاتب الثقافـة الجماهيريـة، وبعضه ضاع فى بيوت الأصدقـاء! .. لكنه يؤكد لى «سأعيد كتابته مرة أخرى بذات الروح التى كتبته بها من قبل» .!

ودوريـش آخـر اسمه «أشـرف النوبى» مخرج مســرحى، يرقص وهو يمشى، ويمشــى وهو يرقص، يحلم بأن تقوم الثقافة الجماهيرية بالأقصر بتدريب الممثلين والمواهب الجديدة، ويحلم بتقديم مسرحه فى الشـارع، وفى ساحة أبى الحجاج، وفى ساحة معبد الكرنك. يريد فنا يلتحم بالأقصر، ويخرج من تراثها، ومثقفيها، ومبدعيها، يقدم للناس بمختلف ثقافاتهم وجنسياتهم، يخاطبهم بالموسيقى وروح الشعر، لأنه يؤمن بأن المسرح لغة عالمية.

ويتمنـى النوبى دعما لفكرته التى تقـل تكاليفها عن تكاليف حفل عشـاء «!!» وتقل جدا جدا عن تكاليف احتفالات أعياد «الأوبت» التى أقيمـت فى الأقصر من عدة سـنوات، وأخرجها مخـرج قاهرى كبير، وتقاضى أجرا مدهشا؛ ومع ذلك.. لم يقدم تراث «الأوبت» .!

ودرويش آخر،

شاعر وباحث،

أحمد فـؤاد جويلى يـرى إمكانيـة تحقيق حلم أشـرف النوبى، لأن الأقصـر تضم مواهب كبـيرة من المخرجين وكتاب القصة والشـعر والمسـرح، ولديهم اهتمام حقيقـى بتراث مصر الفرعونـى المتمثل فى الحضارة الشاهدة على الأقصر، المشروع يمكن أن يكون أقصريا وبيكوره المعبد الأثرى يضيف ويحفظ الأقصر «ترابها وسـحابها وناسـها» كنزا كبيرا من المعتقدات الشـعبية والأسـاطير، والتراث الشـعبى بشـقيه الشـفاهى والمادى، وإذا كانت كل قـرى مصر تختزن هذا الكنز، إلا أن الأقصر – بوجه خاص – لها ما ليس لغيرها من مدن وقرى مصر.

يتذكر جويلى ويوضح .. «وأنت عندما تستيقظ فى الصباح، وتتوجه إلى مدرسـتك، ويكون أول ما يواجهك بوابات الكرنك العظيم، أو معبد الأقصـر، قل لى ما الذى يدور فـى مخيلتك، ما الذى تختزنه الذاكرة، كيـف تتفاعل صور العمالقـة و التماثيل و المعابد، مع سـجودك طفلا فى بيت من بيوت الله» ؟!

ويشرح.. لقد وضعت «خطة أطلس فلكلورى أقصرى «وبدأت فعليا فى اختيار مقر بالبر الغربى، وتأسيس «جماعة حفظ وتوثيق التراث الأقصرى» وقد عرضت الفكرة على د. سمير فرج، فرحب بها، ووعد بتدعيمها.

يضيف.. سنعمل على توثيق المادة التراثية التى سنجمعها، و سوف نجرى دراسات تحليلية لكل قسم من هذه المواد، لإصدارها فى مجموعة كتب تحفظ تراث الأجداد.

وتستمر سلسلة الدراويش فى حب الأقصر.

و الفنـان التشـكيلي «عمار أبو بكر الصديق» قدم من المنيا لدراسـة الفنون التشـكيلية بكلية فنون الأقصر، فسكنته الأقصر، فأقام بها بعد انتهاء دراسـته، وتعيينه معيدا بالكلية، أسـأله عن أوجه الشبه بين الطقـوس الفرعونية، وملامح الحياة في مصر القديمة، وما يحدث الآن في الحياة المعاصرة.

يقول.. ما يحدث في موالد العارفين بالله، هو كثير الشبه مع ما كان يحدث قديما، مثلا: الشـكل المصمـم عليه مقام العـارف بالله بمدينة سـوهاج يمثل تطورا طبيعيا لشـكل أبو الهول، وما يقـدم من نفحات ونـذور لمقامات الشـيوخ الآن، تشـابه تلك التي كان يتـم تقديمها في العصور الفرعونية، والشموع والمخبوزات البسيطة تشبه ما يتم تقديمه عند الأقباط وهو «القربان».

ويشير عمار إلى أن فكرة «تغيير توب العارف بالله» سنويا، وغسيل المقام بماء الورد، هو تقليد فرعوني، حيث غسيل قدس الأقداس سنويا بماء الورد.

ويرصد عمار حركة الفنان التلقائي، وهو يرسم جداريات الحج على البيوت الطينية، وهي تعكس الطبيعة المتأصلة في الشخصية المصرية، وتحايله على كل ما هو محرم في رسـم الشـخوص والرموز بتصميمات مشابهه لتصرف الفنان المصري القديم.

ويـرى أن أعمال الفنان المصري القديم، سـواء كانت عمارة أم رسمًا أم نحتًا، هي حالة من حالات التدين الشديد.

(٩)

وبعد أن فرضت الشمس سطوتها على الأرض، انزوت، رحلت عبر النيل إلى الجبل في البر الغربي، وعادت في صباح اليوم التالى مشـرقة على الأقصر، التاريخ، البدايات، وأنشد مع الشاعر :

وصـــلـــت ســـالــــمـــا
كـمـا يـقـال في الحكـايات القـديمـة
تـعـلقت أصابـعـي بصخـرة الشـاطـئ
سقطت -مرهقا على الرمال - بـرهة قصيرة
أفقت، قبل أن تغوص في المياه نجمة الحكاية !
حـقـــا... أفـــقــــت
واقـــــرأ الـــتـــاريــــخ
عـلـى صـفـحـات الأقــصـــر

فقـد بلغت من القـدم والعراقة و الأصالة، مبلغا كبيرا، وهي من مدن قليلة في العالم ممن شـهد مولد التاريخ، والحضارة الإنسـانية، منذ آلاف السـنين، فضـلا عن كونها تمتلك ثلث آثـار العالم، وكانت الأقصر، ولم تزل جزءا عزيزا من وادى النيل.

وكان الوادى قديما مليئا بالمسـتنقعات و الأحراش، ينمو بها نبات الـبردى واللوتس و أشـجار النخيل و الدوم والجميز و السـنط والنبق و الصفصـاف و الغاب، وكانـت تعيش بها أفراس النهر و التماسـيح و الزراف والفيلـة و الذئاب و الضباع، كما كانـت تكثر فيها الحيات

و الأفاعـــى و الثعابـــين، علاوة على أنـــواع كثيرة مـــن الطيور المحلقة فوق الوادى .

كان هذا حال الوادى قبل اكتشاف الحضارة .

ويشـــير الباحثـــون إلى تعدد الســـلالات و الأجناس البشـــرية التى عاشـــت فى جنوب الوادى وشماله، فقد ضمت أجناسا حامية وسامية، بل وبحر متوسطية، ويمكن القول بأنها انصهرت معا ولا أحد يستطيع أن يدعى أن جنسا ما قد عاش فى منطقة ما منعزلا بمفرده.

ويشـــير الباحث الأقصرى عبد المعطى الكلاســـى بأن صعيد مصر – والأقصـــر جـــزء أصيل منه – قد ســـاد فيـــه «الجنس الحامـــى» القادم من الجنـــوب ويدل على ذلـــك التماثل فى الإنتاج الحضـــارى فى مصر و النوبة السفلى.

وغالبية ســـكان الأقصر من فروع تنتمى إلى أصول سامية، تتفرع من أصل واحد، ترد نسبته إلى سام بن نوح عليه السلام، فيما تنتمى بعض القبائل إلى ســـلالات مصرية قديمة، وبعضها يرجع إلى سلالات عربية وفدت إليها من شـــبه الجزيرة العربية، خاصة أيام الفتح الإســـلامى، واســـتمر تدفقها إلى مصر طـــوال القرون الماضية ومن أهـــم القبائل التى وصلـــت مصـــر «جهينة» و «بيلـــى» وقد اتجهـــت الأولى إلى صعيد مصر وشمال السودان، ويطلق عليهم الآن «عرب جهينة»

ومن أشـــهر القبائل التى ســـكنت الأقصر، خاصة الكرنك و المنشاة والعواميـــة، قبائـــل «الفهدية» الـــذى يرجع نســـبهم إلى فهد بن جبل

القرشي الهاشمي، الذى يمتد نسبه إلى العباس بن عبد المطلب، كذلك ذرية الصحابى الجليل عبادة بن الصامت، والصحابى محمد بن أبي بكر الصديق، ويسكنون قرية «الجبيل».

كما سكنت الأقصر وقراها ونجوعها قبائل عديدة وفدت من مكة و اليمن والعراق و تركيا والأندلس، إضافة إلى الأقباط الذين عاشوا بها .. كما يوجد ذريات و سلالات يرجع نسبها إلى الفراعنة و اليونان والرومان، و الذين امتزجت دماؤهم بغيرهم فى الأقصر.

ومن أشهر الشخصيات التى سكنت الأقصر العارف بالله أبو حجاج الأقصرى، القادم من العراق، وفقا لما ذكره الأدفوى فى كتابه «الطالع السعيد» .

والناس في الأقصر – خاصة المقيمين فى القرى و النجوع – مازال غالبيتهم يتمسكون بالنظام القبلى، بل ويعيشون فى ظله.

وهو نظام، يحترم كبار السن من ذوى النسب، وأصحاب العقول الراجحة، والأخلاق الحسنة، والسمعة الطيبة، ويؤخذ برأيهم ومشورتهم في حل المشكلات، والصلح بين المتخاصمين، ورد الحقوق لأصحابها، ولا يعقد أو يبرم أمرا إلا بعد الرجوع إليهم و الأخذ برأيهم، ومشورتهم، فهم أهل «الحل والعقد» فى المجتمع المترابط ويتميز الناس فى ظل هذا النظام بالولاء و الانتماء لعائلاتهم، ويلاحظ وقوفهم بجانب بعضهم وقت الشدة و الأفراح والمناسبات و الترشيح للمجالس النيابية .

(١٠)

وقد تعددت أسماء الأقصر من عصر إلى عصر . وقد وصف هيرودوت مدينــة طيبة بأنها المدينة ذات «المائة باب» إذ كانت محصنة بأســوار عاليــة، وموزعة على أماكن متفرقة، ويدل على ذلك ما جاء فى نصوص الملــك «أمنوفيس الثانى» الــذى يقص علينا «أنه عنــد عودته ظافرا من حملته فى آسيا، علق ستة رجال مهزومين فوق أسوار طيبة» .

وقــد أطلق العرب المســلمون على هذه المدينة بعد فتح مصر، اســم «الأقصر جمع قصر» .. فى إشــارة منهم إلى معابد تلك المدينة الشامخة ووصفها المؤرخ ياقوت الحموى بقوله «الأقصر اســم مدينة على شــاطئ شــرقى من النيل بالصعيــد الأعلى، وهى أزلية قديمــة ذات قصور» .. فــى الوقت الذى قال فيه ابن بطوطة «وهى صغيرة حســنة، وبها قبر الصالح العابد أبو الحجاج الأقصرى» ..

وورد فــى معجم البلدان «الأقصر كأنه جمع قصر، وهو اســم مدينة على الشاطئ الشرقى للنيل بالصعيد الأعلى» .. وجاء فى الخطط التوفيقية «ومن أسمائها طيبة، وطيوة، واسمها على لســان العامة لقصر» .. وجاء عنهــا فى قوانين ابــن مماتى «الأقصرين وهما بالبر الشــرقى من النيل يقصــد الأقصر والكرنــك- وبها عنب غاية فى الكبر و الحســن، وبها مدرســة لطلب العلم، ويعمــل فى هاتين البلدتين مــن الفخار الأبيض النقى الرفيع الذى ليس يعمل بديار مصر .. مثله» .

ويذكر الباحث عبد المعطي الكلاسي أن مدينة الأقصر كانت قديما «أبت الثنائية» .. و ذلك في إشارة إلى قسمي المدينة اللذين يمثلهما معبدا الأقصر والكرنك، وقد أطلق على معبد الأقصر اسم «أبت رسيت» بمعنى «أبت الجنوبية» .. كما أطلق على معبد الكرنك اسم «أبت إيوت» بمعنى «عروش أبت» . ومن الجائز، كما يقول الباحثون أن «أبت» كانت تنطق في عصر الدولة الحديثة «آبي» وهي كلمة إذا سبقتها أداة التعريف للمؤنث «تا» تصبح «تابي» وقد حرفت الكلمة إلى «طيبة» .

وقد جاء في النشيد التاسع من الإلياذة «هناك في طيبة المصرية حيث تلمع أكوام سبائك الذهب، طيبة ذات المائة باب، حيث يمر في مشية عسكرية أربعمائة من الرجال الأبطال بخيلهم، وعرباتهم من كل باب من أبوابها الضخمة» .

ويفسر الكلاسي كلمة طيبة بأنها مشتقة من الكلمة المصرية القديمة «تا – أبت» .. أي «الحرم» أو «المكان المقدس» .. فضلا عما ذكره و يجل بقوله «إن طيبة مركبة من مقطعين هما «تا» ومعناها «أل» تضاف إلى الاسم المؤنث و «ابي» ومعناها مدخل أو باب، ومن هنا فإن طيبة تعني الباب، وكانت تطلق على القسم الغربي المعروف الآن ببيان الملوك أو طيبة الأموات»

وقد أطلق المصريون في عهد الدولة القديمة على الأقصر اسم «المدينة الجنوبية» .. وهي عاصمتها والتي أسسها الملك مينا الذى

ظهر في طيبة، ويأتي ذلك بعد نجاحه في تحقيق الوحدة الشاملة بين مملكتي الشـمال والجنوب، وقد اختار مينا هذا المكان تحديدا ليسهل له السيطرة الكاملة على شطرى البلاد .

وفى عصر الدولة الوسـطى نسـبت طيبة إلى معبودها «آمون» والتى صارت له القبلة، فسـميت المدينة «توت آمون» بمعنى «مدينة آمون».. وفـى الدولة الحديثة، صارت الأقصر عاصمة سياسـية ودينية، وأطلق عليهـا اسـم «المدينـة المنتصـرة» .. كما أطلقوا اسـم «واسـت» بمعنى «الصولجان» رمز الحكم والسـلطان، وفى العصر اليونانى و الرومانى، أطلق عليها اسـم «ديوسـبوليس مجالا» أى «المدينة الكبرى لزيوس».. حيث شبه اليونانيون الإله آمون بالإله اليونانى الشهير زيوس.

وقد أطلق المصريون القدماء على البر الشرقى للنيل «مدينة الأحياء» حيث المعابـد الدينية التى تؤدى داخلها طقـوس العبادة والتقرب إلى الآلهـة كما يوجد بها قصـور الملوك و الأمراء و النبلاء و الأشـراف، وبيـوت الكهنة والموظفون وعامة الشـعب، و أطلقـوا على البر الغربى «مدينـة الأموات» حيـث المعابد الجنائزية، وفيهـا يقوم الملك بخدمة الآلهة بعد موته، كما كان يطلق على مدينة الأموات اسم «برحا تحور» أى «بيت حاتحور» الإله المقدسة فى هذا الوادى الموحش، و الذى يوكل إليها مسـئولية حماية هذه المدينة من عبث اللصوص حينذاك، لكن فى هذه الأيام .. من يحميها من عبث اللصوص المعاصرين.؟!

(١١)

قالت صغيرتى:

العبرة نأخذها مـن التاريخ، وننفذ بها إلى الحاضر، ربما نصل إلى تصور للمستقبل.

ويرد عليها فاروق جويده بشعره:

بـيــن الـحـجـارة عــاشــق
عـرف اليقين على ضفاف النيل يوما فاهتدى
وأحـبـه حـتـى تـلاشـى فـيـه
لـم يـعـرف لـهذا الحب عـمـرا.. أو مـدى

(١٢)

وقد تعددت الآلهة فى طيبة، وتمثل فى الثالوث المقدس «الإله آمون» الذى كان يظهر فى صورة آدمى، أو فى هيئة حيوان على صورة كبش.

«و الآلهـة موت» زوجة آمـون، متمثلة في صورة امـرأة، أو أنثى العقاب، أو أنثى الأسـد، و «الإله خنسـو» إله القمر، وهو ابن لكل من آمون وموت، ويظهر في صورة إنسـان برأس صقر، يحمل على رأسـه الهلال، يعلوه قرص القمر كاملا، وقد حظيت بمكانة دينية سامية.

وقد اعتاد مؤرخو التاريخ الفرعونى على تقسيم تاريخ مصر إلى أقسام متتالية، يحمل كل قسم مجموعة أسرات، وصلت إلى ٣١ أسرة، بدأت بالملك مينا موحد القطرين، ومؤسـس الأسـرة الفرعونية الأولى عام ٣٢٠٠ ق.م وتنتهى بقدوم الإسكندر الأكبر، ودخوله مصر عام ٣٣٢ ق.م .

وقـد آمن المصريون بعقيـدة التوحيد، وأن للكون إلهـا واحداً، هو المتصرف في كل الأحوال، كما آمنوا بعقيدة البعث والحساب و الثواب و العقـاب، لذلك فقد اعتنى المصريون بموتاهم، بما فى ذلك التحنيط. سر الأسـرار حتى الآن، كما اعتنى المصريون ببناء المقابر الملكية وغير الملكية و اهتموا بتزيينها، وتنافسـوا فيها تنافسا كبيرا، وقاموا بنقش أعمالهم، وأساليب حياتهم على جدرانها، لتكون أنيسا لهم في الممات، إلى يوم البعث والحساب .

(١٣)

وقد أسـفرت هذه العقيدة عـن إنتاج هذه الحضـارة الهائلة، التى اسـتخدمت العلم فـى بدايات تاريخ الإنسـانية، لتقدم فنا تشـكيليا ومعماريـا، وصفـه أبناء هـذا الزمـان، بأنهم لم يصلوا بعـد إلى قامة أجدادهم في إنتاجهم الفنى الكبير.

وعلى رغم آلاف السنين، هى عمر هذه المعالم الحضارية والأثرية، فقد ظلت شامخة، وهى بذلك شاهدة على عبقرية الإنسان المصرى القديم.

والأقصـر فـى برها الشـرقى هى «مدينـة الأحيـاء» .. ومن أبرز المعالم:

معبد الأقصر:

هـو من المعابد الدينيـة، والتى تقام فيه الطقـوس الدينية، وتُقَدَّمُ القرابـين والابتهالات للآلهة، ويقع على مسـاحة أربعة أفدنة، على

مقربة من شاطئ النيل، ويبلغ طوله ٨٥٣ قدما، وعرضه ١٨١قدما، وهو يمثل شموخ مدينة طيبة عاصمة العالم القديم.

ويرجع بناء المعبد إلى فترتين، الأولى فى السنوات الأخيرة من الثامنة عشرة، والثانية فى النصف الأول من الأسرة التاسعة عشرة.

وقد أقيم على أنقاض معبد قديم يرجع بناؤه إلى عصر الدولة الوسطى، وقد أقيم معبد الأقصر ليكون مقرا لثالوث طيبة المقدس، والتقرب إلى الآلهة «أمون وموت وخنسو» .

وقد شارك فى تشييده تحتمس الثالث الذى أقام بالمعبد مقاصير زوارق ثالوث طيبة المقدس، فضلا عن رمسيس الثانى الذى أضاف للمعبد الفناء الخارجى المفتوح بأعمدته، والصرح العظيم فى النهاية الشمالية للمعبد، فضلا عن مسلتين شامختين.

ويروى المهندس «باك ان خنسو» الذى أشرف على البناء بعضا من ذكرياته «لقد أقمت هذه المسلات من الجرانيت، وكان بهاؤها يصل إلى السماء وزرعت الأشجار فى الحدائق، وصنعت أبوابا ضخمة ذات دلفتين من الالكتروم، يلتقى جمالها مع جمال السماء» .

ويحتوى المعبد على تماثيل لرمسيس الثانى وتوت عنخ أمون، كما يضم فناء به عدد كبير من الأعمدة على شكل زهرة اللوتس، ويذكر أن الاسكندر الأكبر أراد أن يرضى الإله أمون فأقام لـه مقصورة فى أقصى جنوب المعبد داخل الهيكل، ثم جاء المسيحيون فشيدوا كنيسة

لهم داخل قدس الأقداس، وفي العصر الفاطمي أقام المسلمون مسجدا للعارف بالله أبو الحجاج الأقصرى فى الفناء الأول.

وتمثلت داخل معبد الأقصر - بذلك - حضارات فرعونية ويونانية ورومانية ومسيحية وإسلامية.!

معابد الكرنك

والكرنك يعنى «القرية الحصينة» أو «الحصن» ويعد من أكبر دور العبادة في التاريخ، وبنى لعبادة الإله أمون، إله مدينة طيبة.

ويقع على مساحة ٦٣ فدانا، يربطهم معبد الأقصر «طريق الكباش» الذى أقامه أمنوفيس الثالث ١٤٠٥ - ١٣٦٨ ق.م .

ومعابد الكرنك، عبارة عن مجموعة فسيحة من المبانى المقدسة، ويضم عددا من المعابد أبرزها معبد الإله خنسو، وأمون رع الكبير، ورمسيس الثالث، والآلهة موت، وبتاح وحتحور ومنتو.

وبدأ تشييد هذه المعابد في أوائل الدولة القديمة، ثم الوسطى، وصولا إلى الدولة الحديثة، وحيث يقف الفرعون في البهو، يرى عبر النيل معبد الدير البحرى.

(١٤)

وبعبور نهر النيل، إلى البر الغربي، وبالانتقال على وسط التلال والهضاب والصحارى، يشعر الإنسان وكأنه في العالم الآخر، لقد اقشعر بدنى وأنا فى مدينة الأموات، فالقدسية فرضت نفسها،

وجلال الموت تملكني، وعبق التاريخ أخذني، إلى حيث يعيش الأجداد في العالم الآخر.

وقد أطلق الفراعنة على البر الغربي اسم «مدينة الأموات» وقد اختاروا هذا المكان ليتم الدفن فيه، وهو يعد النموذج المقابل من الجهة الجنوبية للجبانة العظيمة في مدينة منف القديمة في الشمال، وهاتان المدينتان المقدستان «طيبة الغربية» جنوبا و «منف الغربية» شمالا تعتبران مكملتين لبعضهما، ليس في الموقع فقط، ولكن في التاريخ أيضا.

واختيار البر الغربي له فلسفة دينية، هي أن جهة الغرب، كانت مقدسة عند المصريين، لاعتقادهم في أن مغيب الشمس ما هو إلا طريق إلى العالم الآخر، عالم إله الموتى «أوزوريس» ولا يمكن للمرء إلا أن يقف مندهشا لتلك المقابر الملكية المنحوتة داخل الصخر، ووراء الهضاب في الوادي الموحش، وذلك لضمان راحتهم الأبدية، وحماية مقابرهم من أعمال السطو بعد مماتهم.

ومن المعابد اللافتة للانتباه - وإن كان كل شيء لافتا للانتباه والدهشة - المعابد الجنائزية، ومعبد القرنة، والدير البحري، وتمثالا ممنون، والملكة حتشبسوت، وتحتمس الثالث، ورمسيس الثاني، ودير المدينة، والمعابد الجنائزية بمدينة هابو، ومقابر وادي الملوك والملكات، ومقبرة توت عنخ أمون، وباقي ملوك الأسر الفرعونية، فضلا عن مقابر الأشراف والتي تصل إلى ٤٠٠ مقبرة.

وفـى عصرنا الحديـث، وتحديدا في عام ١٩٧٥.. تم إنشـاء معبد الأقصـر والذى يقـع بين معبدى الأقصر والكرنك، على شـاطئ النيل، وقد أقيم بغرض عرض القطع الأثرية النفيسة.

وشـيد المتحف على أحـدث الطـرز المعمارية، مسـتخدما أحدث الأسـاليب المتحفية في العرض، ويضم - بـين ما يضم - جناحا خاصا لعرض آثار فرعونية «خبيئة».. هى غاية فى الجمال و الروعة.

ومتحف الأقصر، يعطيك الإحسـاس بالزهو تجاه حضارة عاشت آلاف السنين - وتؤكد قدرة الإنسان المصرى المعاصر على الحفاظ على تاريخه. !

(١٥)

تطل الشـمس على مدينة الأحياء، ويظل القلـم عاجزًا عن التعبير عـن عظمة الزمان والأثر، ويظل الإحسـاس معلقا بالأقصر، هذه أرض أجدادى، وهذا مجد على أحفادنا الحفاظ عليه.

ويبقى أن أشـدو مع عاشـق الأقصر الشاعر أحمد جويلى فى نهاية الرحلة :

تـفـلـتـت الـمـجـرة الـكـواكـب
ومــن عــروقــهــا الـجـبـال
تكشف كـهوفـها عـن الرسـوم
فـــكـــرة ومـــومـــيـــاء
ونازحين - فى الجدار - للبقاء
وعن شـروحهم لـمبـعث الضمير

والقيامة
من التراب أقلع الشجر
وأقلمت حقول
أتى المزارعون
مضى ربيع كدحهم إلى الأفول
وغاصت الجذور نحو باطن
الثرى.

أرض الفيروز و القمر وصندوق الذهب

ما إن وَطِئَتْ السيارة رمال سيناء بعد عبورى نفق الشهيد أحمد حمدى الواصل بين السويس وسيناء تحت مياه قناة السويس، حتى أحسست برعشة ملأت نفسى وجسدى، تأملت الشمس، وراحت عيناى تلتهم الصحارى الممتدة، وذاكرتى تلح على بالمكان والتاريخ، على هذه الأرض وطوال ستة آلاف عام سالت الدماء دفاعا و استبسالا هنا حارب أحمس الحيثيين باختراع عصره «العربة الحربية» .. وهذا الطريق هو أول طريق حربى عرفه العالم و الذى سمى «حورس» فرعه الشمالى بسيناء الشمالية، والجنوبى يمر بالنقب حتى جزيرة فرعون، والذى عرف فيما بعد بطريق الحج.. ومن هذا المر قطع عمرو بن العاص الرحلة من الجزيرة العربية ليعز الإسلام بمصر، وتعز مصر بالإسلام، ويجوب صلاح الدين صحراء سيناء مدافعا صلدا عن العروبة والإسلام، حيث قاعدته بوابة جنوب سيناء، من خلال قلعته بجزيرة فرعون جنوبى طابا بثمانية كيلو مترات .

وبعد سنوات الاحتلال، أعاد المصريون ما ضاع منهم، محققين مقولة «مصر تعرف أن الشمس فوق سيناء يطلعها البشر» !

لقد حقق الإنسان المصرى المقولة، وأعاد شمس سيناء إلى الوطن.

نبدأ الرحلة فى التاريخ والجغرافيا : لقد أطلقت تسميات كثيرة على جنوب سيناء، أرض القمر، أرض الفيروز، أرض الأديان، فى الوقت الذى أطلق عليها فى العصور الفرعونية اسم «توشويت» أى الأرض الجرداء، وفى عهد الدولة الأشورية «أرض مجان» الذى صرف إلى اسم «مدين» الذى عرفت به سيناء فى العصر العباسى، أما كلمة سيناء فقد اقتبست من لفظ «سين» ومعناه «القمر» ..!

وجنوب سيناء .. هو الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة التى تعتبر أول منطقة شهدت صناعة التعدين فى التاريخ، فمنذ أكثر من ستة آلاف عام، تم صهر النحاس، واستخراج الفيروز و الذهب من وادى النصب و وادى المغارة، ومنذ أكثر من خمسة آلاف عام، وضعت أول أبجدية عرفها العالم، حيث شهدت مغارات الفيروز ما سجله الفراعنة منذ زوسر وحتى سنوسرت من نقوش هيروغليفية وسينية .

وشهدت هذه المنطقة طوال التاريخ، صراعا محموما، وكانت البوابة من العرب إلى المرب عبر سيناء، لذلك كان من الطبيعى أن تتحصن لحماية الحدود الشرقية لمصر، حيث توجد قلعة طور سيناء التى بناها السلطان سليم الأول عام ١٥٣٠ و التى تبعد عن مدينة الطور بنحو خمسة كيلو مترات، ثم قلعة الجندى التى بنيت فى عصر صلاح الدين الأيوبى عام ١١٧٠ على بعد ستة كيلو مترات شرق مدينة رأس سدر، أما قلعة صلاح الدين التى بدأ فى تشييدها عام ١١٧٠ فوق جزيرة

فرعون بعد انتصاره على الصليبيين، فتبرز أهميتها في قيامها بدور حيوى فى حماية خليج العقبة و البحر الأحمر و الجزيرة العربية من الوقوع في أيدي الصليبيين .

كذلك موقعها المنيع ضد «أرناط» الصليبى أمير حصن الكرنك الذى قام بتجهيز حملة للاستيلاء على الجزيرة للانطلاق منها إلى المدينة المنورة عام ١١٨٢ ، إلا إنه لم يتمكن من ذلك، وظلت صامدة أمام ضراوة الحصار المضروب عليها من السفن الصليبية ..

.. وقلعة صلاح الدين - وفقا لما ذكره د. أحمد قدرى - من الآثار الشامخة و الدالة على عمق الفكر العسكرى المصرى، علاوة على قيمتها الأثرية و التاريخية و الإسلامية، لأنها لعبت دور الحارس الأمين للشواطئ العربية فى مصر و الجزيرة العربية و فلسطين على حد سواء.

ويوجد فى هذه المنطقة معبد سرابيت الخادم بمدينة أبو زنيمة، وقد بنى «للإله حتحور» حامى حدود مصر الشرقية منذ أربعة آلاف عام، ووادى المكتب وبه كتابات تاريخية على جوانب جباله باللغة القبطية و اليونانية والعربية، ثم وادى المغارة وبه صخرات عليها نقوش باللغة الهيروغليفية، وهو مكان لتعدين الفيروز، وبه تمثال كبير أقامه الملك «سمرخت» آخر ملوك الأسرة الفرعونية الأولى، أما أهم الصخرات التى عثر عليها فى هذا الوادى، فهى صخرة سمرخت التى تعتبر أكبر أثر للفراعنة فى سيناء، بل قيل إنها أقدم أثر من نوعه فى العالم .

وشبه جزيرة سيناء، جغرافيا تقع في أقصى الغرب من قارة آسيا، وتربط قارتي آسيا و أفريقيا برا، وبعد حفر قناة السويس زادت الأهمية الاستراتيجية لسيناء باعتبارها حلقة اتصال العالم برا وبحرا، علاوة على الخيرات الكامنة في جبالها ووديانها وسهولها وشواطئها، وتبلغ مساحتها بعد صدور القرار الجمهوري في عام ١٩٧٩ بتقسيمها إلى محافظتين شمال وجنوب، حيث يفصلهما الخط الوهمي الواصل من طابا شرقا إلى رأس مسلة غربا، حوالي ٣٠ ألف كيلو متر.

وهي شبه جزيرة مثلثة الشكل تقع بين خليجي السويس والعقبة ويغلب على طبيعتها الجبال التي تتوسطها، ويصل ارتفاعها إلى ٢٦٣٩ مترا وتتخلل هذه الجبال مجموعة من الوديان تهبط إلى الشرق والشمال والغرب، وقد وهبها الله جمالا طبيعيا فذا، فتجد ألوانها زاهية خاصة الأحمر والأصفر والأخضر و الأسود علاوة على أن أمطار السيول حفرت علـى الجبال رسوما يخيل للمشاهد أن هناك فنانا عظيما نحتها، أو رسمها وخلق منها تشكيلات فنية مدهشة .

كما أن سلاسل الجبال تعلو وتنخفض وتعطي شكلها العام «بانوراما» بألوان متعددة وفقا لسقوط الشمس عليها، خاصة عندما تنحدر، فتعطي ما يسمى «بالسلويت» أبعادا فنية لا تنسى، أما المنطقة الوسطى، وبها هضبة «العجمة» تليها شمالا هضبة «التيه» أي إن تضاريس جنوب سيناء جبلية ساحلية إذ يبلغ طول شواطئها ٦٠٠ كم، حيث يوجد سهل ضيق

على خليج العقبة، وسهل ساحلى متسع نسبيا على خليج السويس، ويمتاز هذا الشاطئ برمال ناعمة ساحرة، وبمياه زرقاء رائعة.

وإذا تتبعنا الطريق خطوة خطوة، نبدأ من منطقة جنوب عيون موسى، فرأس مسلة ثم رأس سدر «المدينة البترولية القديمة» ثم منطقة العيون الحارة بجبل فرعون وميناء رأس ملعب حيث يصدر الجبس، فواحة غرندل ثم مدينة أبو زنيمة حيث المنطقة الصناعية الجديدة للفيرو منجنيز ثم مدينة أبو رديس يليها منطقة بلاعيم ثم سهل القاع، وتقاطع وادى فيران المتجه شرقا إلى المنطقة الجبلية وسانت كاترين، أما المتجه إلى مدينة الطور عاصمة المحافظة والتى ارتبط اسمها «برحلة المحمل والحج إلى بيت الله الحرام» كما ارتبطت بالمحجر الصحى ثم معتقل الطور.

وكانت الطور منذ عصر المماليك ميناء تجاريا هاما، وموقعا استراتيجيا وعسكريا كبيرا، وقد استخدم هذا الطريق للحج منذ سافرت «شجر الدر» عام ١٢٤٨ م مع قافلة الحجاج إلى مكة عن طريق سيناء - فيتجه جنوبا إلى سهل القاع لمسافة ٦٠كم، ثم ٩٠كم للمتجه إلى شرم الشيخ، أما ساحل خليج العقبة فيبدأ من محمية رأس محمد حيث شهرتها العالمية فى دنيا الغوص تحت الماء، ثم خليج نعمة وهو قطعة فنية بديعة، ثم مدينة ذهب، وهى بحق مدينة ذهبية برمالها، فعند شروق الشمس وغروبها، ترسل الشمس أشعتها الذهبية عبر السماء الصافية، وتمر وتتلاقى مع ذرات الرمال الناعمة التى تراقصها

الريــاح، وتداعبهــا ذرات بخار الماء الصاعد من ميــاه الخليج، فتكون بانوراما شكلتها هذه الرؤية الذهبية.

ونواصل المسير إلى نويبع فجزيرة فرعون.

ونستقر في طابا !

وطابا.. دخلت مفردات الوطنية المصرية من أوســع أبوابها، كانت النقطــة الأخيرة التــى تم تحريرها، وقــد انتابنى شــعور متناقض، ومتضارب «هو» بين الشعور الوطنى الفياض، ومشاعر الغضب للتواجد الإســرائيلى المشــيوه! لقد خاضت مصر معركة خاصة بطابا اســتمرت ســت ســنوات وخمســة شــهور وأربعة أيام، منها ثلاث سنوات فى التحكيم الدولى.. حيث كانت معركة بحق، إذ قدمت مصر مذكرات إلى محكمة العدل الدولية بلغت ١٥٠٠ صفحة وستة مجلدات من الملاحق، ومائة ســاعة من المرافعات الشــفهية، وكان الجميع، رجال السياســة والقانون والجغرافيا والتاريخ والاســتراتيجية والمســاحة العســكرية والحدود فى سباق رهيب مع الزمن من أجل إعادة طابا عزيزة وغالية.

وطابــا.. هى فصــل هام فى كتــاب الحرب بين مصر وإســرائيل، وذلك يطرح تســاؤلا: لماذا احتفظت إســرائيل بطابــا، ذلك أنها تمثل أبعادا هامة، سياسية واســتراتيجية وعسكرية، فهى تمكن إسرائيل مــن وجود حدود لها مع مصر والأردن والســعودية، حيث تتحكم فى عدة طرق إلى الســويس وشرم الشــيخ والعقبة، ووجودها - أى طابا - مع إســرائيل يجعلها من دول حوض البحر الأحمر الذى يمثل - فى الحقيقــة - بحــيرة عربيــة خالصة.. وعــادت طابــا إلى موقعها من

الوطن الأم، لا سيما وأن اسمها الأصلي كان «رأس المصرى» كما يقول د. يوسف أبو الحجاج.

والثابت تاريخيا أن قدماء المصريين أطلقوا على بدو سيناء اسم «هيرسايتو» أى «سادة الرمال».. أما فى العصر المسيحى فقد عرف هؤلاء السكان باسم «أعراب بنى إسماعيل» ..ويرجع أصول بدو سيناء إلى العنصر العربى الذى أطلق على جميع الشعوب الناطقة باللغات السامية فى كل المنطقة العربية.. إذ كانت تلك المنطقة متصلة ومتشابكة مع المجتمعات المحيطة بها، وتعتبر قبائل «بلى» من أقدم القبائل العربية الموجودة فى شبه جزيرة سيناء، وإن كانت من أقلها عددا فى الوقت الحاضر وقد هاجر من الجزيرة العربية فى عصر الفتح الإسلامى نحو ٧٥ قبيلة، استقرت فى مصر وسيناء، ومنها قبائل «بنو واصل والمواطرة، والبدارة» التى استقرت فى شبه الجزيرة، وذابت فى سكان البلاد الأصليين من «المونيتو» وكونت الأساس الاجتماعى للمجتمع البدوى الذى يتكون فى جنوب سيناء من ١٣ قبيلة، تشكل الحياة الاجتماعية داخل المجتمع المتناثر.

وأهم القبائل الحالية فى سيناء الجنوبية «الصوالحة» الذين يرجع نسبهم إلى «حرب» من قبائل الجزيرة العربية، وهم يمتلكون الآن قلب بلاد الطور، أما قبيلة «مزينة» فتنزل فى المنطقة الواقعة إلى الشرق من سانت كاترين، وتمتد على طول خليج العقبة، أما قبائل العليقات، فينسبون أنفسهم إلى قبيلة قديمة من بنى عقبة، وإن كان البعض يرى أن هذه التسمية محرفة، وأنهم فى الحقيقة «عليلات» لا «عليقات»

نسبة إلى عقيل بن أبى طالب، وهم ينزلون فى مناطق غنية بالماء والنبات، أما قبيلة «الجبالية» فهم ينتسبون إلى المنطقة الجبلية المرتفعة التى يسكنونها فى منطقة جبل موسى وسانت كاترين، وهم يختلفون اختلافا ملموسا عن سائر بدو سيناء فى ملامحهم وسماتهم وطباعهم.

وبدو سيناء ليس لهم قانون مكتوب يحكم التعاملات بين الناس، لكنّ تراثا طويلا من المعاملات، وضع قواعد مضبوطة للتعامل يحترمها الجميع، ويقول «نعوم شقير» صاحب أضخم وأقدم كتاب عن سيناء اسمه «تاريخ سيناء» يقع فى ألف صفحة، ولا يباع إلا فى مكتبة «سانت كاترين» بدو سيناء كسائر البدو، يعنون بحفظ أنسابهم، بل ويبالغون فى استقصائها حتى يردوها إلى الآباء الأقدمين، كما أن كل قبيلة مرتبطة بسائر القبائل بحلف أو «قلد» ولها حسيب حافظ لعهودها مع القبائل، ويعرف بالعقيد، أو بنقال الأقلاد، أو نقال القلوم، أما «الحلف» فهو المحالفة بعينها، وهو معاهدة دفاعية هجومية، وأما «القلد» فهو معاهدة سلمية لمنع الحرب أو الغزو وحفظ السلام بين القبائل، ويشترط فيما يعقد عنده الحلف أو القلد أن يكون مشهورًا مذكوراً وسيع المراح راعى مال وعيال، ويدعى راعى البيت، وبيته بيت العمارة، وهو الشاهد الحكم بين المتعاهدين ويورث علمه للأرشد من أولاده!

واستنادا إلى العرف الذى استقر بين القبائل، فأضحى أقوى من القانون، يفصل فى الخلافات بين البدو «قضاة» منهم ينتخبون

من كبار المشـــايخ، ويتصفون بالإلمام التام بالعــرف القبلى - كما يقول الباحث محمد نور الدين - لذلك قسمت شرائع العرف كالتالى :

القاضى الذى يختص بالجرائم التى ينكرها من تنسب إليه لعدم كفاية الأدلة، يقوم باختيار المتهم عن طريقين، أولهما: اختباره بالنار، وذلك بأن يتولى إحضار طاســة نحاس يحميها على النار إلى أن يحمر لونها، ويمسحها ثلاث مرات، ثم يأمر المتهم بأن يغسل لسانه بالماء، ثم يناوله الطاسة المحماه «ليلحســها» بلسانه، ثم يغسله، فإن ظهر على لسانه حرق «فقفقة» حكم المبشــع بالدعوى لخصمه، وقيل فى تبرير ذلك، أن المتهــم إذا كان ارتكب الجريمة، فان ريقه يجف من الخوف، وبالتالى تؤثر النار على لسانه.

أمــا الاختبار الثانى فيكون بالمــاء، وذلك بأن يحضر القاضى إبريقا مــن النحاس، ويقف الحاضرون ومن بينهــم المتهم فى دائرة، ثم يقوم القاضى «بالتعزيم» على الإبريق الذى يتحرك من تلقاء نفسه، فإذا وقف أمــام المتهم، ثبتــت عليه التهمة، وإن وقف أمام المبشــع «أى القاضى» كان بريئا.!

أما القاضى المختــص بالعقوبات والجروح، فهو يصور الجزاء على قدر كل جرح، وأكثر القصاصين من قبيلتى المزينة والقرارشــة، وهناك قضاة متخصصون بأمور الإبل، وشريعة الإبل صارمة جدا لأنها الأساس الاقتصادى للقبيلة، وهناك قضاة متخصصون فى النساء، ويحكمون فى المسائل المتعلقة بهن مثل هتك العرض والمهر والطلاق .

وإذا كان الرجـال فى المجتمع البدوى هم المسـيطرين، لكن المرأة البدويـة لهـا دور هام فى الحياة الأسـرية، فهى التـى تصنع الخيام وتغزل الأغطية وتقوم بجلب الماء وجمع الحطب وطحن الحبوب، علاوة على مهارتها الخاصة فى التطريز البدوى المشـهور بوحداته الجميلة، ومنها «دقن الباشا».

ومـن تقاليد البدو أن المرأة تحلف أو تقسـم برأس أبيها، لا برأس زوجهـا، وذراع ابنها، وهذا يدل على مدى اعتـزاز البدوية بأهلها، وتمسـكها بإعلاء شأنها، بالرغم من زواجها، أما قسمها بذراع ابنها، فهذا يعنى رغبتها فى تنشئته بحيث يصير قويا شجاعا.!

ويفضل بدو سـيناء الـزواج المبكر، وإن كانـوا لا يميلون إلى تعدد الزوجات إلا فى أضيق الحدود مثل الرغبة فى الإنجاب، وعادة يتخير الشـاب واحدة من بنات عمـه، ولا يؤخذ برأى البنت إذا كانت «بكرا» .. أما إذا كانت «ثيبا» فيؤخذ رأيها، ولابد من رضاها، وإذا رضى والد البنت بالخاطب ناوله غصنا أخضر وقال له: «هذه فسـيلة فلانة بسنة الله ورسـوله.. وإثمها وخطيتها فى رقبتـك من الجوع والعرى ومن أى شـئ نفسـها فيه وأنت تقدر عليه» .. وعندما يتناول الخاطب الفسيلة يقول لوالد الفتاة: «قبلتها زوجة لى على سنة الله ورسوله» .

ويتم إعداد خيمة للعريس تدعى «البرزة» ليزف فيها على عروسـه، وتدخل مع العروس أقرب قريباتها، أما سـائر الناس فيجلسـون خارج البرزة، ويقوم أهل العريس بنحر الذبائح من الغنم لأهل الفرح عند باب

البرزة، ويعدون الأطعمة المحببة، ويمتد السامر حتى منتصف الليل، وأثناء الاحتفال تخرج الناس من البرزة، ليدخل العريس، ويمكث فيها مع عروسه ثلاثة أيام، والعادة المدهشة، هى فرار العروس قبل انتهاء الأيام الثلاثة من البرزة، فيطاردها العريس، وذلك لكى يعيشا فى الخلاء بعيدا عن مخيم القوم، حتى يتم إعداد الخيمة الجديدة لهما.. !

..

وسيناء.. تلك «العقدة» التى «تلحم» أفريقيا بآسيا كما يقول العاشق المصرى جمال حمدان، ليست مجرد صندوق من الرمال، إنما هى صندوق من الذهب، فقد كانت منذ الفراعنة منجماً للذهب والمعادن النفيسة، وهى الآن بئر بترولها، كما أنه من المهم أن ندرك أن سيناء ليست مجرد فراغ أو حتى عازل، إنها عمق جغرافى وإنذار مبكر، يمكن أن نشترى فيه الزمان بالمكان، إنها ككل خط الدفاع الأخير عن مصر «الدلتا والوادى» . !

وإذا كان العلم الذى يرفرف على تبة طابا دليل عودة الشمس والدفء لسيناء مصر، فهل عودة الشمس والدفء والوصال بين سيناء والوطن الأم يكفى؟ وهل هذه العودة تصبح مجرد مادة للأغانى وكتابة الأشعار؟

فى رد عملى يقول عمنا جمال حمدان – الذى كان يرسم خطط المستقبل باعتباره واحدا من سدنة هذا الوطن – التعمير، ويضيف.. التعمير البشرى، والتعمير العمرانى، فالفراغ وحده هو الذى يشجع «الجشع»

ويدعــو الأطماع الحاقدة إلى ملء الفراغ، وهناك إجماع على ضرورة نقل الكثافة الســكانية المكتظة فى الوادى إلى أطراف الدولة وحدودها، بما فيها وعلى رأسها سيناء، إن التعمير هو التمصير. !

ويرى عالم الجغرافيا حمدان أن ســيناء تحمل فى طياتها إمكانات كبيرة للاســتصلاح والتوســع الزراعى، كما أن قضية تمديد مياه النيل إلى شــبه جزيرة سيناء ليســت بدعة «فقد كان النيل يصب قديما غرب ســيناء، كما أنه مــن الوجهــة العمرانية البحتة لم يعــد هناك مبرر لأن تظــل قناة الســويس أحادية الضفــة، بل ينبغى أن تــزدوج تماما بالعمران الكثيف على كلتا الضفتين، ومن الضرورى أن تمتزج مشاريع التعمــير بمشــاريع الدفــاع معا، وفى تخطيــط تعمير ســيناء القوى، تضع التحدى الحضارى على مستوى التحدى العسكرى.

روزيتا .. نهارك سعيد !

واحد من دراويش النيل «أنا» وكنت قد ألقيت نفسي في مياهه، فقادني إلى مصبه، عند زهرته الجميلة «روزيتا» أو «رشيت» .. وأخيرا «رشيد» .

والثابت تاريخيا وحضاريا أن المنبع ممثلا في «النيل»، قد صدر الحياة إلى المصب، في حين صدر المصب ممثلا في «البحر المتوسط» الحضارة إلى المنبع، فالأول صدر الخام، والثاني أعاده إليه مصنوعا وغزاة، وكانت رشيد في الحالتين محور الحياة والصراع.

في الطريق من القاهرة، وفي اتجاه الشمال بنحو ٢٥٠ كم، نصل إلى رشيد، ويتبين لنا عجب هذا النهر، الذي خرق القاعدة الجيولوجية مرتين، ولصالح مصر:

- تتجلى الأولى في كونه أحدث أنهار القارة الإفريقية.
- والثانية بوصفه مخالفا لكل أنهار الدنيا، إنه يتجه طوليا من الجنوب إلى الشمال، ولم تفت هذه المخالفة الطبيعية هيرودوت.. فسجل «أنه يجرى عكس كل الأنهار الأخرى» .. ووصفه عمنا جمال حمدان بأنه: «العاصي الأعظم» . !

(١)

والزهرة الجميلة «رشيد» .. ذلك المثلث الذي يحده شرقا «النيل»

فى فرعه المسـمى باسمها، وشمالا البحر المتوسـط، حيث يلتقى النهر مع البحر فى عناق أسـطورى، أسفر: حياة وحضارة وغزاة ومصاهرات ومعاهـدات، وقلاعـا، أما الضلع الثالث، فهو قاعـدة المثلث التى يبلغ طولها ٢٢ كم، ويضم مليون نخلة.

يصف أحد علماء الحملة الفرنسية «جولوا» هذا الموقع بقوله «رشيد» قابعة على شط النيل، وعلى بعد ثلاثة فراسخ من البحر المتوسط، وتستخدم كمسـتودع للبضائـع القادمة من القاهرة، والمناطـق العليا من مصر، كى تنقل إلى أوربا عن طريق الاسـكندرية، وبنفس الطريقة تستقبل البضائع القادمة من أوربا عن طريق الأسكندرية، وتنتقل هذه البضائع إلى القاهرة عبر النيل، ومن هنا تتوزع إلى جميع أنحاء مصر» .

يضيف جولوا، الذى وصل رشـيد عن طريق البحر المتوسط على متن السـفن الفرنسـية الغازية، كما جاء فى موسـوعة وصف مصر، والتى نقلها إلى العربية أحد كهنة حب مصر زهير الشايب.. «على بعد ثلاثة أرباع الفرسـخ من مصب النيـل، كان لون المياه أخضر فاتحا، وقد تبين الخط الفاصل بين اللون الأخضر لميـاه النيل، واللون الأزرق لمياه البحر المتوسـط، وما أن اجتزنا البوغاز، حتى تغير اللون الأخضر، إلى اللون الأصفـر الناتج بلا ريب من لون الرمال التـى ينقلها النهر إلى مصبه، والناتج كذلك من لون الطمى العالق بمياه النهر» .

وأسبح مع «جولوا»

والسباحة هذه المرة جنوبا

فقد تجاوزنا البوغاز.. ودخلنا إلى النهر الذى احتوانا، ونظرنا يمينا: «كانت ثمة غابات من النخيل ذات خضرة آخاذة، وحيث إن شطآن النهر قليلــة الارتفاع، فقد كان مدى البصر يمتـد إلى بعيد، كنا نلمح قرى، ومـآذن رائعة وأضرحة تتجمع حولهــا مجموعات من النخيل، أما من جهة الدلتا، فكانت العيون تشـعر بارتياح تجاه حقول يغطيها الأرز، فتشـكل واحدا من أبهج المناظر، ومن غير بعيد من النهر، ينمو بوفرة المحاصيل والشـجيرات، ويلاحظ من بينها غابات من أشجار البرتقال والليمون التى تنشر شذى طيباه .

ويضيف، جولو وأنا: «وقد يتهيأ المرء وهو يعيش وسط أشجار وشجيرات بساتين رشيد، أن يترك لخياله العنان، ولا يستطيع إلا الاستـسلام للبهجة التي تصنعها الروائح التي تنتشـر في كل مكان.. وللمشـهد الآخاذ لزهرة الرمـان ذات اللــون الأرجواني، ولزهـرة الريحان ذات اللــون الأبيض، ومع ذلك فهل يمكن لهذه الجداول التى تنشر الماء والنماء في كل مكان أن تكمل صورة الجمال، يضاف، كل بسـاتين رشيد تقع على حافة الصحراء، وتشكل سياجا يحدد مساحتها، وكذلك فإن الأشجار التى تزرع فيها تصنع ما يشبه حواجز تصد عن المدينة رمال الصحراء» .

(٢)

ورشيد:

مدينــة قديمة يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسـرة الأولى فى التاريخ الفرعونــى، لأن الملـك مينا كان قد زحف إليها فى ثورته الأولى ســعيا

وراء تحقيق الوحدة بين الوجهين القبلي والبحرى، فاصطدم بأهل هذه المنطقة الذين كانوا يسمون «رخيتو» أى «عامة الناس» .. وهذه الكلمة قريبة من الأصل القبطى لرشيد وهى «رشيت» التى صارت فيما بعد «رشيد» .. أما «روزيتا» أى الوردة الصغيرة «فهى ليست إلا تعديلا للتسمية «رشيد» .

وفى الأسرة التاسعة عشرة، أقام الملك «منفتاح» استحكاماته على الضفة الغربية لفرع النيل برشيد، لصد هجمات الإغريق والصقليين، وقد انتصر المصريون لأول مرة فى معركة حربية مع أوربا، والتى جرت وقائعها على أرض رشيد، كما أقام الملك «بسماتيك الأول» عام ٣٦٦ ق . م معسكرا على ساحل رشيد، وأوقف ثلاثين سفينة لحمايتها، كما أن فرع النيل الحالى «البولبتينى» نسبة إلى «بولبتين» التى قامت رشيد على أنقاضها فى العصر اليونانى، حيث كان يصنع بها العجلات الحربية اليونانية .

ودخلت رشيد فى الإسلام على يد عمرو بن العاص بعد فتح الأسكندرية عام ٢٠ هجرية، وكان حاكم رشيد القبطى «قزماس» قد عقد صلحا مع ابن العاص وأدى الجزية، وظلت الكنائس على حالها لمن بقى على دينه من أهلها .

وفى القرن الثالث الهجرى، وعلى حد قول اليعقوبى فى مؤلفه «البلدان» كانت رشيد مدينة عامرة آهله بها ميناء بحرى يجرى فيه مياه النيل إلى البحر المالح، وتدخله المراكب حتى تصير فى النيل» .

يضيف «أما في القرن الرابع الهجرى، فقد تعرضت رشيد للمعارك الحربية التى جرت بين العباسيين والمغاربة، ففى سنة ٣٠٦ هـ . أرسل المقتدر بالله العباسى أسطولا من بغداد التقى عند رشيد بأسطول المهدى صاحب المغرب، فانتصر العباسيون حيث احترقت مراكب المهدى وفنى كثير من رجاله ووقع الباقون فى الأسر» .

ويقول ابن دقاق فى كتابه الانتصار بواسطة عقد الأمصار «ثغر رشيد المحروس، وبلدته عند مجمع البحرين وتجاهه جزيرة تعرف بالخضراء ويوجد بهذا المكان فرس النيل، وبها جامع وحمام وأمير مركز وبها كوم الأفراح، وبأعلى الكوم منار يرى منه مراكب الفرنج القادمة، وقد عمَّره السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى، وبأسفله برج عمَّره الأمير صلاح الدين بن عرام على شاطىء النيل، وبالبرج المذكور كُتَّاب سبيل يقرءون به، وهذه البلدة كثيرة بشجر الرمان والنخيل، وأهلها قليلون، وعامتهم صيادون فى السمك والطير، وإن كان أهل هذه المدينة كلهم مرابطون» .

وقد بلغت رشيد أوج حضارتها فى القرن العاشر الهجرى، ويذكر ابن زبيل فى تحفة الملوك والغرائب: «من ثغور مصر كوم الأفراح، فيها مقابر كثيرة من الصحابة، وهى مدينة حصينة، بينها وبين أبى قير بالأسكندرية نحو ثمانية فراسخ فى البر، وفى رشيد يعمل السكر ويُجْلب منها إلى جميع الممالك، وكذلك الأرز والسمك، وبها أصناف اللحوم والفواكه» .

لذلــك .. فقــد حظيت هذه المدينــة بعد أن أصبحت أقــرب الثغور المصرية من اســتنبول بعد فتــح مصر «٩٢٤ هـ - ١٥٧١ م» بالمنشـآت العثمانية، وكان أكثرها مساجد ووكالات ومقاهى ومتاجر، وكان يوجد بها مؤسسات أوربية وقناصل يمثلونها، وأولها البندقية، إلا إن القرن الثانى عشر قد شهد انحدار المدينة، شأنها فى ذلك، شأن المدن المصرية على أيدى المماليك المتناحرين .

(٣)

ومع مطلع الثانى من شهر يوليو ١٧٩٨ ، كتب فصل جديد من التاريخ المصرى، حين حط نابليون بونابرت بقواته فى الأســكندرية، حالما بأن تكــون مصر «لؤلؤة» الإمبراطورية الفرنســية، على غرار الهند «لؤلؤة» الإمبراطورية البريطانية، وعلى حد تعبير بونابرت فى مذكراته «تأمل ما تصبح عليه هذه البلاد الجميلة بعد خمسين سنة من الرخاء والحكم الصــالح. إن المخيلة لترتاح إلى صورة جذابــة: ألف هويس تتحكم فى طــول البلاد وعرضها، لتوزع مياه الفيضان، وثمانية أو عشــرة ملايين متر مكعب من مياه النيل تضيع كل عام فى البحر، يمكن أن توزع على كل منخفضات الصحراء»..!

وبعد مقاومة باسلة فى الأسكندرية، تم استقرار الحال لبونابرت، فبــادر بالتوغــل فــى البلاد لإتمــام فتحها ، فأرســل قوة إلى رشــيد، لأهميتها، ولتأمين احتلاله للأســكندرية لأن تموينها من الطعام يأتى من رشــيد، غير أن رشــيد لم تقع فريسة ســهلة فى أيدى الفرنسيين،

لأن المقاومة الشعبية كانت مستقرة - كما يقول محمد زيتون في كتابه إقليم البحيرة - فأدرك الفرنسيون ذلك الاتصال الوثيق بين مقاتلي الأسكندرية، ومناضلي رشيد، فصبوا جام غضبهم على السيد محمد كريم بطل المقاومة الشعبية السكندري، إذ نقلوه من الأسكندرية إلى رشيد، وبعد مهزلة أسموها محاكمة، حكموا عليه بالإعدام .

(٤)

وفي ٢ مارس ١٧٩٩ ، تمت المصاهرة الفرنسية المصرية، بعقد قران الجنرال جاك مينو، القائد الثالث للحملة الفرنسية، والذي أشهر إسلامه، وأطلق على نفسه اسم «عبد الله» على جميلة جميلات رشيد الآنسة زبيدة بنت محمد البواب، من كبار تجار رشيد.

يقول الجبرتي «إن قائم المقام الذي يسمى عبد الله جاك مينو، وكان حاكما على رشيد، وأعلن إسلامه وتسمى عبد الله، وتزوج بامرأة مسلمة غصبا عن أهلها، ففر والد زبيدة من المدينة يوم خطبتها خوفا من عار هذه الزيجة التي لطخت اسمه» !

ولم يثبت أن سلمت زبيدة قلبها إلى مينو الفرنساوي، بالرغم من أنها أنجبت منه ولدا سمي «سليمان مراد» .. وقد كتب مينو - الذي انتقل إلى القاهرة في يونيو ١٨٠٠ م خطابا إلى المشايخ والعلماء يوم أن أنجب ولده يقول فيه «يا حضرة المشايخ والعلماء، إننا نشكر فضلكم على ما أظهرتم لنا من تهنئة بولادة ولدي السيد سليمان مراد جاك مينو، فنطلب من الله سبحانه وتعالى، ونسأله بجاه رسوله سيد المؤمنين

أن يجود بـــه على زماننا مديرا، وأن يكون للعدل محبا، وللاســتقامة والحق مكرما» ا

يتبادر تساؤل: هل كانت زبيدة بهذا القدر من الجمال المصرى الذى بهر مينو، أو أنه كان زواجا سياسيا قصد به التودد إلى المصريين؟

والتساؤل التالى : كيف كانت زبيدة؟

زبيدة بنت الســيد محمــد البــواب، كان وجهها إشــراقة الصبح أو صفحــة البدر به، لها عينا حور امتزجت بها صولة ســحر، فكانتا شــباك الفتنة لصيد القلوب، وأنف أحســن الله تقويمــه، فزاد وجهها جمالا، وثغر درى ياقوتي تهيم به الشفاه وتحوم حوله القلوب ظمأ كما تحوم طيور الصحراء حول معين الماء العذب.

كانت زبيدة – و الوصف لعاشــق رشيد فرج المزازى نقلا عن الشاعر على الجارم – فى الثامنة عشرة من عمرها، تفتح فيها الشباب كما تتفتح زهــرات الربيع، فارعة القد، ملفوفة القوام، جرى حديث جمالها الفاتن مــن فم إلى فــم، وانتقل من دار إلى دار، حتى أصبحــت مضرب المثل بين فتيــات المدينة، ومقياس الجمال كلما ذكــر الحديث عنه، وتهافت أبناء التجار والأعيان و الحكام على خطبتها و التقرب من قدس حسنها، ولكن كانت ترد كل توسل، بالرفض، ولم تكن أمها تستطيع أن تفعل شيئا أمام هذه الحسناء الجامحة، لم يكن أبوها، وهى وحيدته ليرد لها كلمة .!

كانــت زبيدة عند أبيها الفتاة المدللة، وقــد ملأتها ثقتها بجمالها غرورا، وزادتها ثروة أبيها ميلا للتأنق و الرفاهية و إنفاق المال الكثير

علـــى الحلى و الجواهر والملابـــس فكانت فى جمالها و أزيائها ودلالها أسطورة الجمال و أبهى خيال، جميلة الجميلات زبيدة البواب.!

وذات يوم :

ظهـــرت العرافة «رابحة» التى مرت علـــى منزل البواب، فوجدت زبيدة تجلس بجوار أمها «نفيســـة» .. فجذبتها من يدها، ونظرت فى كفها، ثم شـــهقت فى دهشـــة حائرة .. وصاحت : «سبحانك يا ربى، لا راد لمشـــيئتك، ولا معقب لحكمك، بيدك الملك، وأنت على كل شـــىء قدير» !.. واســـتطردت: «انظـــرى يا زبيـــدة إنه خط الملـــك فى يدك.. ستكونين ملكة مصر، فتحيتى وخضوعى لمولاتى زبيدة ملكة مصر» .!

وانفلتـــت العرافة «رابحة» .. ولم يعثر لها بعـــد تلك النبوءة على أثر!.. وسلبت هذه النبوءة من زبيدة فكرها، وسكنت الحيرة عاطفتها بين ميل قلبها لحبيبها «محمود العســـال» ابـــن خالتها وبين نبوءتها التى أشعلت بريق الحلم البعيد الذى سيطر على خيالها .!

(٥)

وكيف تم الزواج ؟

تســـاؤل منطقى يطرح نفســـه، ربما تتكشـــف الحقائـــق حول هذه المصاهرة السياسية الفرنسية المصرية، هل كان طموح زبيدة، وجمالها، وســـحرها وراء تحقيق نبوءة رابحة العرافة، أو أن رغبة مينو فى ضبط الأمن مع أهل رشـــيد يأتى من باب المصاهرة، وهل لو كانت زبيدة فتاة مصرية عادية، وكان جمالها طبيعيا كشـــأن بنـــات نيل مصر، هل كان

مينو سيقترن بها، أو أن «القدر و المكتوب على الجبين» هو الذى أتم الزواج ؟

فى صباح يوم الجمعة عام ١٧٩٨ هبط الفرنسيون رشيد، وهرب من مواجهتهم حاكم رشيد عثمان خجا، وجنوده من الانكشارية، ودانت السيطرة للجنرال «دوجا».. وبعد ثلاثة أيام وصل الجنرال جاك فرانسواه مينو إلى رشيد بعد أن عينه نابليون بونابرت حاكما عليها .

واشتعلت المقاومة الشعبية، وضمت رجال دين وبسطاء، لكن المقام استقر للفرنسيين

وذات يوم ومينو يجلس فى صدر إيوان بيته فى رشيد «يتململ ضجرا من المقاومة الشعبية، أشار عليه بعض معاونيه من ضرورة تغيير سياسته تجاه أهل رشيد، بالتقرب منهم، عن طريق المصاهرة !

وبعد مداولات اختار له أحد العالمين ببواطن الأمور فى رشيد، إما واحدة من بنات الشيخ الجارم، و إما بنت البواب، وعندما وصل الخبر إلى الشيخ الجارم، قام على الفور بعقد قران ابنتيه «رقية وآمنه» على طالبين كان يدرسان على يديه. !

ولم يبق غير بنت البواب

وأرسل مينو فى طلب محمد البواب، وداهمه بطلب يد ابنته الوحيدة «زبيدة».. وأسقط فى يد الرجل، وهرب من رشيد قبل إتمام الزواج، فى الوقت الذى أشهر فيه مينو إسلامه، وسمى «عبد الله» .

وكان شاهدا العروس، شقيقيها من الأم «على الحمامى السيد أحمد»

و «إبراهيم الحمامي السيد أحمد» .. وبحضور مولانا أحمد الخضري المفتي الشافعي، والشيخ صديق النايب، والشيخ محمد غزال النايب، وأحمد البدوي نقيب الأشراف .

وقد صدر التوافق والتراضي بين الحاج حسين الميقاتي الوكيل الشرعي للعروس وبشهادة شقيقيها ، للزواج من عبد الله باشا مينو ساري عسكر القطر المصري، بموجب كتاب الزوجية المسجل بمحكمة الثغر بالشروط التالية :

١ - أن تكون زبيدة الزوجة قد أقامت وأنابت زوجها وكيلا عنها في ساير ما تملكه يدها الآن .

٢ - أقر عبد الله باشا مينو الزوج المذكور أن كامل ما هو تحت يدها من متاع ومصاغ ملك لها بمفردها .

٣ - عبد الله باشا مينو الزوج المذكور أعطى لوكيله الحاج أحمد شهاب «مائة محبوب» كل واحد منها بمائة وثمانين نصف فضة من نظير زوجته المذكورة، وأن الحاج أحمد شهاب سلم جميع ذلك ليد وكيل الزوجة الحاج حسين الميقاتي، يسلمها ذلك عددا بالمجلس وذلك على حسب عادة القضاة المسلمين .

٤ - أن الزوج المذكور شرط على نفسه أنه إذا حصل بينه وبين زوجته فراق، يدفع لها ألفا ريال، اثنان معاملة نظير فراقه لها، وكل مالها تحت يدها وقت ذلك يكون جميعه ملكا لها حسب عادة دفع مؤخر الصداق للمسلمين.

٥ - أن زبيـدة الزوجة المذكـورة إن كانت تطلب طلاقها من زوجها بحسب شرع المسلمين لم يكن لها من الألفى الريال المذكورة، ولا نصف فضة، ما عدا ما تحت يدها من مصاغ.

٦ - زبيدة لم تزل وارثة في كل ما كان شرعا .

٧ - أن زبيدة أقرت بنفســها إن مات زوجها فهى فى عصمته تأخذ من ماله ألفى ريال .

٨ - إن مات المذكور وخلف أولاداً من زوجته المذكورة وهم قصر، يقام عليهم رجلان ناظران ووصيان، واحد فرنساوى والثانى ابن عرب يتصرفان في أموالهم بحسب المصلحة فى طريقة الفرنساوية وطريقة المسلمين .

٩ - إن ماتت الزوجة يكون أبوهم هو الوكيل الشرعى على أولادهم وعلى أموالهم.

١٠ - إن مــات عبد الله باشــا وزوجته وخلفــا أولادا تركوهم تحت حماية جمهور الفرنساوية .

والزوجة والزوج أقرا، واعترفا برضاهم هذه الشروط على يد وكيلهم الإقرار والاعتراف الشـرعى الصادرين منهما بالمجلس، وأنهما التزما بهذه الشـروط، وأقرت ثبوتا شرعيا بحكما بموجبه في ١٧ من رمضان ١٢١٣ هجرية الموافق ٢ مارس ١٧٩٩ ميلادية.

(٦)

ولقيت زبيدة فى أول الأمر من مينو شغفا وهياما وطرقا فى الغزل، وشكوى فى الصبابة، وكان يجثو أمامها فى استعطاف ويتمتم فى أذنيها

بأحاديث الحب واللوعة، وذلك بعد أن انبهر بها، وما رآه من سحر وفتنة، وكان لسان حاله ينطق بما أحس به الشاعر الجميل، الشيخ الفتى الولهان محمد الشهاوى، وهو يصف «امرأته المستثناة» بقوله :

هى امرأة تشبه الشمس إلا أفولا
على شاطئ الألق المترقرق مفعمة بلهيب الوضاءة
مترعة بأريج الأنوثة
تسلم أعضاءها ليد السحر ترسم فى
جسمها الغض أحلى الأساطير
ماذا يقول لسان المزامير
عنها
سوى أن يقولا :
هى امرأة تشبه المستحيلا
هى امرأة يشرب النور من قدميها «اللتين تشعانه»
هاطلات السنا والندى
كى يبل الصدى
والمغنى هنالك – محتدما بأوار التراتيل –
يرسل اللانهائى فى مقلتيها
بريد المواويل
وهو يناغم رقرقة الضوء
إذ يتدحرج فوق حبال المدى

لـيـمـــالـــح فى وجـنـتـيـهـا الـصباح الجميلا
وسـيـدة الـــنـور تـعـلـم أن الـقـصـــائـــد
مـفـــتـاح الدخـــول إلى بـاحـة الـمـطـلـق المتهلل
هـــــى امـــــرأة لـــــم تـــــراود
ســـــوى الـحـــلـــم مـــن نـفـــســـه
وفـــــــتــــــــاهــــــــا
تــوزعــــه الـحـــلـــم وجـــبده والـشـــذا
والــــــــنــــجــــــــوى
والـــــنــــحــــــــولا

...

هـــــى امـرأة قد تـفـرغـت الـمـمـجزات لتشكيلها
والــــمــــقـــــاديـــــر
دهـــــــرا طـــــويـــــلا
هـى امـــرأة وجـمـيـع الـنـسـاء ســـواها ادعــاء
لـهـــا الـبـحـــر مـن قـبـل بـلـقـيـس
عـــــــــــــرش
وكــــل الــمــيـــاه إمـــــاء
يـخـــاصـــرهـــا الـمـــوج فـى نـهـــم
ممعـنـا فى الـصـبـابـة جـيـلا، فـجـيـلا

...

هـــــــــى امـــــــــــرأة
مـــــــلء أعـــطـــافــهـــا
عـــــــــبـــــــــــق
يـســـتـــدل عــلـــيــهـــا بـــه
مـــن يـــــود الـــــدلـــيـــلا
هـــى.. امـــرأة تـــشـــبـــه المـستـحـيلا.!

(٧)

ورزيتا، الوردة الصغيرة، أو رشيد، كانت المفتاح السحرى، الذى فتح رحاب التاريخ المصرى القديم للإنسانية .!

كيف؟!

لقــد تمكن الفرنســى جــاك فرانســوا شــامبليون من فــك الرموز الهيروغليفيــة ومعرفة قواعدهــا ومعانيها وأســرارها المحفورة على «حجــر رشــيد» الذى عثر عليه أحد ضباط الحملة الفرنســية ويســمى «بوشار» والذى كان يقوم ببعض الترميمات لقلعة قايتباى برشيد.

والحجــر الإنســانى المدهش، الــذى تم العثور عليه عــام ١٧٩٩، هــو عبارة عن حجر من البازلت الأســود، تحمل نســخة من مرســوم أصــدره بطليموس الخامس عام ١٩٦ قبل الميلاد مدون بخطوط ثلاثة هى «الهيروغليفيــة و هى اللغة المصرية القديمة، والديموطيقية وهى اللغة المصرية الشعبية، واليونانية.

وقد حاول الفرنسيون نقل الحجر معهم عند جلائهم عن مصر، إلا إن الإنجليز منعوهم، وقد آل الحجر - طبقا لشروط معاهدة ١٨٠١ بين الفرنسيين والإنجليز - إلى الإنجليز، وهو الآن من أهم الآثار المعروضة بالمتحف البريطاني بلندن. !

(٨)

وما كادت سُحب الغزو الفرنسي لمصر، تتبدد، وتزول، حتى وصلت الحملة الإنجليزية إلى الأسكندرية في ١٦ مارس ١٨٠٧، واتجهت أنظار قائد الحملة فريزر إلى رشيد في ٢٠ مارس، لتأمين التموين القادم منها، وفي ٢٩ مارس تقدمت قوة إنجليزية قوامها ١٤٠٠ جندي بقيادة الجنرال ودكوب للاستيلاء على رشيد، حيث وصلت في اليوم التالي إلى مرتفعات أبو مندور الواقعة جنوب رشيد بنحو ٢ كم .. إلا إن الحملة منيت بهزيمة نكراء . !

وكان رصيد الحملة الإنجليزية من القتلى ١٨٥ والجرحى ٣٨٢، وقيل ٥٠٠ بين قتيل وجريح، فضلا عن ٤٠ جنديا إنجليزيا تم أسرهم، وقد وصلت الدفعة الأولى من رءوس القتلى الإنجليز إلى القاهرة في ١٥ ابريل ١٨٠٧ ،وكان عددها ٩٠ عرضت في ميدان الأزبكية، وقد قاد الدفاع عن مدينة رشيد حاكمها على بك السلانكي، والشيخ حسن كريت، وكان النصر بفضل حسن وترتيب قوات الدفاع عن المدينة من أبنائها، وقد اشترك الجميع، رجالا ونساء وغلمانا.

والثابت تاريخيا، أن هزيمة الإنجليز في رشيد، أجّل الاحتلال

الإنجليـزى لمصـر نحو ٧٥ عامـا، إلى أن عـادوا مرة أخـرى إلى مصر عام ١٨٨٢.

ويذكـر الجبرتي في يومياتــه : «وردت معلومات من ثغر رشــيد تذكـر بأن طائفة من الإنجليز وصلت صبح يوم الثلاثاء، ودخلوا البلد، وكان أهـل البلـد ومن معهم من عســاكر متهيئين ومسـتعدين بالأزقة والعطف، وكان كاشـفها في انتظارهم، وطلع بمن معه إلى البر فصادف تلك الشرذمة، فقتل بعضهم، وأسر الباقي» .

(٩)

ورشــيد، كما يصفها الفرنسـاوى «جولـوا» أن شــوارعها ضيقة، متعرجة،وكل البيوت مبنية مـن طوب ضاربة الحمرة، غامق اللون .. وتســمى هذه «الطوبة» تسمى بالرشيدية السوداء التي يقال: إن العلماء عجزوا عن الوصول لمعرفة الطريقة التى صنعت بها .

ويسجل جولوا فى «وصف مصر» دهشته من أن «الـمدارس فى رشيد كثـيرة العدد، وهو ما يتناقض كثيرا مـع الجهالة التى كان من المعتاد افتراضها في سكان مصر» ! والواقع .. أنه لم يجتمع في مدينة مصرية من البيوت الأثرية مثلما اجتمعت في رشيد بعد القاهرة، ونظرا لأنها كانت أغنى مدينة في العصر العثماني، فقد عكست هذه البيوت ما تميز به أهل رشيد آنذاك، من التقدم فى فن النجارة والعمارة والبناء، فضلا عن أن صناعة خرط الخشـب تعد من أقدم وأروع هذه الصناعات، إذ إن الصورة الزاهية والباقية حتى الآن، دليل عنوان هذه الحضارة .

وتضم رشيد ٢٢ بيتا أثريا، منها منزل الأمصيلى، وزبيدة البواب، فضلا عن ١٢ مسجدا ترجع إلى أصول تاريخية إسلامية مختلفة، وأربعة آثار أخرى هى طاحونة أبو جاهين، وحمام عزوز، وبوابة أبو الريس، وقلعة قايتباى .

وتعكس هذه الآثار الطابع الإسلامى، والمتأمل لها يقف كثيرا أمام المشربيات وصالات الاستقبال والنقوش الخزفية وأشغال الصدف، فضلا عن السراديب، وهى غاية فى التعقيد والسرية، وكانت هذه البيوت مزودة بصهاريج للمياه العذبة، ومبنية على أحدث طرق الفن المعمارى .

ويصحبنا عالم الحملة الفرنسية «جولوا» فى منزل الأمصيلى كنموذج للمنازل التى مازالت باقية، ومعظمها تحت الترميم الآن .. ويقول جولوا «يبدو فى الطابق الأرضى باب على مدخل كبير، ومن ثم بابان آخران أقل حجما، وأربعة أعمدة ذات ارتفاعات ومقاسات غير متساوية، مقامة على قواعد تشكل نوعا من الزينة، ويبنى مدخل الباب الرئيسى وواجهة المنزل من طوب شديد الانتظام، وثمة قطع من الخشب تختلط بهذا البناء، وتظهر أحيانا بالعرض، وأخرى لا تظهر، وهى مثل الإسفنج تمتص الهزات الأرضية» .

يضيف : «وينقسم بقية المنزل إلى ثلاثة طوابق تبين معالمها عن طريق كمرات خشبية تظهر أطرافها من الخارج لتشكل نوعا من الزينة، وينفذ الضوء إلى الأدوار العليا عن طريق نوافذ كبيرة تغلقها «تقفيصات» من الخشب، أى مشربيات» .

«وفي الواجهة فتحات تسمح بالتهوية، وثمة فتحات في الجوانب لكي تجعل من الميسور الرؤية عن بعد في الشارع حتى ترضي فضول السيدات اللاتي يستطعن الرؤية – بهذه الطريقة – أن يرينَ دون أن يراهم أحد» .!

«وثمة طابق رابع يشكل نوعا من الأكشاك، لها شرفة تستطيع النسوة أن يروحن من أنفسهن دون أن يراهن أحد، ومع ذلك فمن الممكن رؤيتهن عن طريق المؤذنين من أعلى مآذن المساجد، فاحتاط الرشايدة لهذا الأمر، فتم اختيار المؤذنين من العميان» .!

يضيف «وينقسم البيت إلى جناحين، جناح الرجال، وجناح الحريم، وفي جناح الرجال أو مالك البيت كانت الشبابيك مغلقة بمشربيات خشبية كبيرة المربعات، أما مربعات مشربيات النساء فكانت أقل حجما، ويتم الاتصال بين الجانبين عن طريق سلم صغير، ويتم إيصال الطعام للرجال عن طريق كوة دائرية» .

ولأن المغنى، والطرَب كان له باع كبير في مصر طوال التاريخ، فقد تم تخصيص غرفة للغناء، في منزل الأمصيلي وزبيدة البواب، والغرفة غاية في الجمال، فالسقف عبارة عن لوحة فنية، مرسومة بدقة، وبالغرفة مكان للتخت، وأمامه ما يشبه المكتبة، إذا فتحت – أحد أبوابها وجدت سلما صغيرا يصل إلى الدور الأعلى وبه مشربيات لتتمكن النسوة من الاستماع والاستمتاع بالطرب والموسيقى .!

(١٠)

ومـن الآثـار الإسـلامية الهامـة، ذات البعـد الروحي، مسـجد أبـو منـدور، ويصف «جولـوا» هذا المسـجد الـذى تم ترميمه الآن، وهـو من معالم السـياحة الدينيـة: «إلى الجنوب بنحو فرسـخ - أى كيلو ونصف الكيلو - يقع سـفح حصن أبو منـدور، توجد به صومعة إسـلامية، وهى ملحقة بمسـجد أقيـم تكريما لولى مسـلم تقع مقبرته داخله، وأبو مندور هو اسـم هذا الولى، ويعنـى أبو الروعة والجمال، أما المكان نفسـه فيتوقف عنده البحارة والمسافرون ليقدموا نذورهم إلى شيخ الجامع حتى يحوزوا بركته ورضاء الولى، كما يحدث فى مزارات كثـيرة لأولياء آخرين، حتى يبلغ الوهـم بأن الولى من هؤلاء قادر على جلب الخصوبة للنسوة العقيمات اللاتى يجئن إليه» !

ونضيف إلى معلومات جولوا الفرنساوى أن العارف بالله أبو النضر، أو أبو مندور من مواطنى كربلاء، من سلالة على بن أبى طالب، والمسجد له ثلاثة أبواب، شمالى وشرقى وغربى، والباب الشمالى مزخرف وكتب فى أعلاه عبارات تدل على أنه جدد عام ١٣١٢ هجرية، ويرتفع السقف الخشبى للمسجد على أربعة أعمدة من الرخام الأبيض المزخرف، قاعدته منقوشة بنقوش إسلامية، وعلى شمال الداخل من الباب البحرى توجد حجرة بها قبر صاحب المسجد .

وتنحصـر الميـزات الفنية والزخرفية للمسـاجد فى رشـيد على النحو التالى:

١ – تعـدد المداخـل التى هى عبارة عن باب يقع داخل مسـتطيل بارز ، يعلوه عقد ثلاثى، يتوسـط منده الأوسـط دائـرة مزينة بالزخارف النباتية والهندسية .

٢ – تحتـوى هذه المساجد علـى أروقة وبائكات محمولـة على أعمدة رخامية، وأكتاف تحمل أسـقفا خشبية أو قبابا كما هو موجود فى مسجد المشيد بالنور .

٣ – اعتنـاء الفنان بالأضرحـة والمقاصير، فزخـرف واجهات بعضها بالطوب الرشيدى المبخور .

٤ – استخدام القيشانى فى زخرفة الجدران، وفى المآذن كما فى مسجد دومقسيس .

٥ – استخدام الزخارف المشعة فى المحاريب، وفى القباب .

(١١)

وأتجول فى شوارع رشيد
أتنفس رائحة التاريخ

الشوارع وسط المدينة، شأنها شأن مدن مصر مزدحمة نهارا، الناس على شـاطئ النيل يصنعون يخوت الأغنياء، ويتم نقلها إلى شرم الشيخ والغردقة ومارينا .

أمـا الملاحظة الواضحة، فهى المقاهى، بين المقهى والمقهى، مقهى، وهـو ما لاحظه «جولوا» من ٢٠٨ سـنوات، وعلى حد تعبيره «رشـيد

يدخن فيها الجميع، غنيهم وفقيرهم، لذلك تصبح النارجيلات ضرورة أولية، فهي تصنع بكميات ضخمة، وبأشـكال مختلفة، فهي تصنع من الطين الخزفي، معجون بعناية فائقة» .

يضيـف: «والمقاهي هـي عبارة عن صالة واسـعة ترتفع جدرانها، ويوجـد بها منصات أو مصاطب، وعلى المصاطب يأتي الناس ليشـربوا القهـوة ويدخنـوا النارجيلـة التـي لا تفارقهـم مطلقـا، وينعسـون أو يستمعون إلى إنشادات الشاعر المرتجل، أو إلى حكايات يرويها حاكٍ لا يمل الحكاية، وفي مقهى كبير على النيل تأتي العوالم أو الراقصات العموميات والموسيقيون والمنشدون والشعراء» .

لكن جولوا سـجل ملاحظة هامة، وهي الأذان يطلق لصلاة العشاء، يتسابق أهل رشيد إلى المساجد، يصلون، ثم يولون وجوههم إلى منازلهم، ليناموا !

أمـا الآن.. فالنـاس يصلون – أيضا – لكنهـم يولون وجوههم نحو المقاهي، فيسـهرون فيها حتى الفجر، لذلك فقـد أصدر اللواء فتح الله الجندى رئيس المدينة قـرارا بغلق المقاهي في الواحدة صباحا، بل إنه توقف عن إصدار تراخيص جديدة للمقاهي والكافيتريات.

ويرصـد محمد العزازى مسـألة المقاهي بقولـه: يوجد نحو ١٢٠ مقهى برشيد، عدا تلك التي أزالها رئيس المدينة والمقامة على كورنيش النيل تمهيدا لإصلاحه، وجعله كورنيشا بلا مقاهٍ أو كافيتريات.

– ويقول: مقاهى الآن.. غير مقاهى زمان.!

– كيف ؟

– مقاهى زمان كانت عبارة عن مؤسسات متنقلة لعدة أسباب منها:

١ – المجتمع الرشيدى، مجتمع محافظ، «بمعنى أنه ممنوع على الغريب أن يزور رشيديا فى منزله، بل وصلت المسألة إلى أن الأخ لا يدخل بيت أخيه فى عدم وجوده، لذلك كانت المقهى هى مكان الاستقبال.

٢ – كانت المقاهى متخصصة، منها للبنائين والصيادين والنجارين، ومختلف التخصصات المهنية، ويتم فيها الاتفاق على المقاولات، وبها المحاسبون الذين يديرون حسابات المهن المختلفة.

٣ – والذى أدى إلى تزايد عدد المقاهى زمان – على حد تعبير سمير الديبانى تزايد النشاط الاقتصادى الناتج عن الصيد قبل إنشاء السد العالى، وقبل تأميم مضارب الأرز، والقادمين من قرى رشيد لتسويق بضائعهم الريفية.

ويشير أحمد الجداوى مدير التأمينات إلى تزايد عدد المقاهى – الآن – يرجع إلى البطالة، وسهر الشباب عليها نتيجة الإحباط وعدم وجود فرص عمل.

ورصد الجداوى عدد الحاصلين على شهادات عليا خلال السنوات الخمس الماضية بنحو عشرة آلاف، بعضهم هاجر إلى مناطق السياحة الجديدة فى شرم الشيخ والغردقة.

وقــال: إن هناك أنشــطة بيئيــة اندثرت، مثــل ورش البلاط بعد ظهور الســيراميك، والســجاد اليدوى والكليم والأقفــاص من الجريد بعد ظهور أقفاص البلاستيك والحبال واللوف.

وأشــار إلى أن الصيادين اتجهــوا إلى أرتريا وليبيا، وكان هناك وعد بإنشــاء ميناء صيد عام ١٩٨٥، مع تطهير البوغاز، فلا الميناء أنشــئ، ولا البوغاز تطهر !

وقال مدير التأمينات إن الانتعاش الاقتصادى الآن يتمثل فى صناعة الســفن واليخوت، حيث يوجد ٢٤ ورشــة، وتعد رشيد أهم المواقع فى هذه الصناعة.

وتوقع إحياء النقل النهرى، الذى سيخفف العبء على النقل البرى، حيث ستنشــأ مدارس لصناعة السفن، كما كان الحال أيام محمد على، وسوف يوفر ذلك مليون فرصة عمل، بشرط إنشاء الميناء النهرى. !

وفســر أحمد الجــداوى تزايد عــدد المقاهــى والحلاقــين ومراكز الاتصالات، بأنها أنشطة غير محتاجة إلى رأس مال. !

(١٢)

فى زيارة ســابقة لرشــيد، كان رئيسها الســابق حلمى زايد يحلم بمشــروع قومى يعيــد آثار رشــيد بالكامل – كما يحلم بإنشــاء فنادق مســتخدما فى ذلك البيــوت المملوكية مثل عرب كندى وحســين غزال وزبيدة البواب، لتنشــيط حركة الســياحة، مع تحويل رشيد إلى مركز ثقافى يتسق مع تاريخها الطويل.

إلا إن محمــود درويش مدير آثار رشــيد الســابق، يرى ربط الآثار بالفنون التشكيلية، ويوافق على فتح البيوت كقاعات عرض، مع إنشاء معهد للحــرف الأثرية تتخصص في الأخشــاب وعمليات الخرط التي اشتهرت بها رشيد.

لكنه لا يوافق على فتح البيوت الأثرية كفنادق حرصا على ســلامة الأثر، الذي لا يتحمل الكهرباء والمياه والصرف الصحي.

(١٣)

وأحمل تساؤلاتي وملاحظاتي إلى رئيس المدينة الحالي اللواء فتح الله الجندي الذي يتحمل المســئولية منذ ثمانية شهور فقط، الرجل «شاب» و«متحمس» ويضع أمامه أجندة عمل يأمل في تنفيذها.. !

يقول:

□ تأخرت رشــيد عن مثيلاتها في القومــات، مثل رأس البر على ســبيل المثال، والمشــاكل كانت تتمركز في عدم وجود مشروعات البنية التحتية مثــل الصرف الصحي، وبوغاز رشــيد، والمياه الجوفية وعدم الاهتمام بآثار رشــيد، وعــدم إدراجها كمدينة ســياحية وعدم وجود فنادق، ووجود نحر على شاطئ البحر عند المصب.

وبدأت المواجهة

□ فقد بدأت الدولة في الاتجاه لإقامة البنية التحتية، وذلك بإقامة تســعة رءوس حماية لشاطئ رشــيد بتكلفة ٩٤ مليون جنيه، ومن شأن

هذه الرءوس المحافظة على الشـاطئ من التآكل، ويمكن عمل اسـتثمار سـياحي، ومصيف، وقرى سياحية على مساحة ٢٠٠٠ فدان، وذلك من شأنه تسيير عجلة التعمير على الساحل.

☐ أما بوغاز رشيد، وهو مصدر اقتصادى فى تجارة صيد الأسماك، وصناعـة اليخوت والمراكب السـياحية، ومراكب الصيـد، مع إمكانية إقامة منتجع سـياحى بالمنطقة، وذلك مرهون بتطهير البوغاز، حيث يتـم الآن بعـد الاتفاق مـع وزارة الرى التى تتحمـل ٤ ملايين جنيه. والثروة السمكية التى تتحمل أيضا أربعة ملايين جنيه.

☐ لم ترق الصناعة لتحقيق الأمل فى مشـروعات تفتح أبواب الأمل للشـباب، مع عدم وجود مسـتثمرين، لعدم وجـود صرف صحى وبعد المسافة والخوف على رأس المال، والرغبة فى المكسب السريع!

☐ بعد ١٢ سنة من بداية العمل فى مشروع الصرف الصحى، تمكنا من إتمام ٨٠٪ منه، ومع بداية السنة الجديدة سيتم استلام محطة مقامة على ٩٠ فدانا، و ٥ محطات ربط، وبانتهاء المشروع.. المجال مفتوح للتصنيع.

☐ منـذ عـام ١٩٨٤، لم تمتد يد لتجميل كورنيش النيل برشـيد، أو حتى رفع التعديات المتمثلة فى الكافيتريات والمقاهى، وفى تقديرى.. جميع التعديات تمثل بقعة سـوداء على شاطئ نهر النيل.! لذلك قمنا بإزالة التعديات، وسيصل الكورنيش حتى منطقة أبو مندور.

☐ تشـجيع القطاع الخاص على إقامة فنادق، لتتحول سياحة اليوم الواحد إلى إقامة.

□ نشجع الآن المشروعات الصغيرة، بتسهيل التراخيص، وتسهيل الحصول على قروض ميسرة.

□ أما أقفاص الأسماك بالنيل، وهى ظاهرة تنامت فى غيبة المتابعة، وقد أقيمت بحجة تشغيل الأيدى العاملة.. ولكن للأسف لم تستخدم بطريقة صحيحة أو صحية، لجشع البعض فى تحقيق مكاسب سريعة دون تكاليف، حيث يتم تغذية الأسماك على الفضلات، وكان لابد من التصدى لهذه الظاهرة، وقد أمر محافظ البحيرة برفع هذه الأقفاص نهائيا، وتم إعطاء مهلة حتى شهر أكتوبر القادم، وإلا سنتدخل للإزالة.

□ نواصل ما بدأه الزميل حلمى زايد من خمسة عشر عاما، بزرع شجرة أمام كل بيت، لكن غيرنا استراتيجية الزميل حلمى، هو كان يمنح الشجر مجانا، نحن نبيع شجرة لكل مواطن لكى يحافظ عليها، لكن مجلس المدينة هو الذى يرعاها.. ودعنى أطرح هذا الشعار: من يزرعْ .. يرعَ !

وأعرب اللواء فتح الله الخطيب.. بعد أن شكا لى بمرارة عن تغير سلوك المواطن الرشيدى.. أعرب عن تغيير فى عادات الرشيدى، ليعود محبا للعمل، باذلا للجهد، وأن ينام مبكرا، ليستيقظ مبكرا.!

..

وكانت رحلة إلى روزيتا، التى أقول لها بحب كبير : نهارك سعيد .

السويس: فاتحة كتب التاريخ

تاريخ المدن الثـلاث «السـويس و الإسماعيلية وبورسـعيد» حيث معاناة ناسـها وشـعبها، تمثل لوحة شـديدة الإخلاص فى الانتماء، وإن كانت شـديدة الدراما فى الوقـت ذاته، ويمكن أن يطلق عليها: تراجيديا الإنسان المصرى على شط القناة.

وعندما يؤرخ لهذه المنطقة الساخنة و الملتهبة سوف تذكر الحقائق الدالة، بل والمؤكدة، على روعة الإنسـان - هنا - فى صراعه المرير مع الطبيعة، ومع الاستعمار.

وصراع الطبيعة هنا يتأكد من خلال ملحمة الإنسان المصرى فى حفره لقناة السويس، بشكل بدائى، مائة وخمسة وعشرون ألفا من المصريين، يساقون «سخرة» للحفر، فيختلط العرق بالدمع بالدم، فى لوحة شديدة الدراما.

ويأبى الاستعمار أن يسلم بأن الأرض مصرية خالصة، والدم مصرى، والدموع مصرية، والعرق مصرى، لذلك، فقد شهد «كتاب الحرب» بين المصريين والمسـتعمر، فصولا كاملـة، من المقاومـة والصمود والحصار والتصدى.

لم تلن عزيمة الناس هنا، وآلاف الأسماء «شهداء» أحياء عند ربهم يرزقـون، وأحياء أعطاهم الله الصحة جزاء مـا قدموا للوطن من مقاومة وعرق وصبر، كلها تؤكد الملحمة.

وإذا كان نضال الإنســان المصرى في هذه البقعة العزيزة و الغالية، قد بدأ في ١٨٥٩ ، ســنة حفر القناة، فقد شــهدت ملحمة أشــد قسوة وخطــورة وفداء وتضحيــة مع عمليات الســادس مــن أكتوبر ١٩٧٣، بما تحمله من تفاصيل كثيرة يضمها كتاب البشر على هذه الأرض.

وقد عشت أياما في هذه البقعة، أبحث و أنقب وأفتش وأستمع وأناقش وأحلل سعيا وراء الإنسان «البطل» صاحب الملحمة، أناس عاديون، صمدوا، ولم يكن طموحهم يزيد عن «النصر» المجرد لحساب الوطن.

وأســجل هنا: أنهم - أى أبناء هذه الملحمة وتلك البقعة - خجلوا مــن التحدث عن بطولاتهم بل كم كان الســؤال اســتفزازيا، لقد قالوا: «كنا نعمل لحساب الوطن، لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا»!!

وإذ أقدم هذا الملف الإنسانى، من كتاب البشر، الذى يضم تراجيديا الإنسان، في منطقة القناة، والذى حاولت فيه أن ألم بالتفاصيل الإنسانية، بدءاً من تلك الأم التى كانت تطعم الجنود باعتبارهم أبناءها، إلى الرجل الذى كان يقتسم «بلحة» مع خمسة «أنفار» فى ظلام الخندق.

كمــا أقــدم نموذجا إنســانيا، لرجل عاش ســت ســنوات يشــحذ همــم الرجــال، ويقدم تجربة فريــدة فى عالم المقاومــة الذاتية اسمها «ولاد الأرض».

● الســويس.. مدينة مصريــة خالصة، تحتضنهــا، جبال عتاقة مــن الغرب، شــاهد عيان على هــذه المدينة الصامــدة، صاحبة ملحمة أبنائها الصامدين.

تطل السـويس على أفق معبق بحضارة فرعونية أصيلة، على خليج السـويس في رحلته إلى الجنوب، نبع الأصالة الإفريقية، وتلتقى على أرضها الحضارات الإنسـانية من خلال قناة السويس التى ربطت شمال العـالم بجنوبه، كما التقت الأديـان - على ترابهـا - وارتبط الكفاح المصرى بالكفاح العربى والإسلامى.

وكانت السـويس على مدى تاريخها مسـرحا لأحداث ملأت سمع الدنيا، وبصلابة عودها، وصبر شـعبها، استطاعت أن تتحمل وتصمد، وتتخطى كل العقبات، وسـجلت مالا يقوى التاريخ على نسيانه وبقيت السويس هي السويس !

وامتازت السويس - في الجغرافيا - بأنها جمعت كثيرا من الخصائص النادرة فكما أنها ميناء بحرى على البحر الأحمر، فهى - أيضا - ميناء برى على الصحراء، وقلعة عسـكرية للدفاع عن الوطن، ثم هى كانت ولا تزال، معبرا بشـريا لضيوف الرحمـن في رحلة الحـج إلى الأراضى الحجازية، وعلى عتبتها «انتهت «المغامرة الفاشلة لإسرائيل فى العام ١٩٧٣».

والسـويس «فاتحـة» كتب التاريـخ، والتى تحتل فصـلا هاما من «كتاب الحرب» هى ذات موقع اسـتراتيجى، ذى صبغة عسكرية عبر كتاب التاريخ، وأقوى حصون الحائط الملكى منذ عهد الفراعنة، ومسرح المعارك الفاصلة فى تاريخ مصر، قديمه، وحديثه.

وقد بدأ وجود السـويس - كما يقول المؤرخ جيمس برسـتد - منذ فجر التاريخ، إذ إن الأسرتين الخامسة والسادسة من الدولة الفرعونية

القديمة «٢٥٦٣ ٢٣٠٠ ق. م» قد أقامتا استحكاماتهما فى قلعة السويس لصد المغيرين، حيث سميت آنذاك «سـيكوت» وذلك لكونها ميناء على برزخ السويس الممتد فى هذه الفترة.

وعندمــا أصبحت «مدينتنا الصامدة» عاصمة للإقليم الثامن من أقاليم الوجــه البحرى فى العصــر الفرعونى أطلق عليها «بيشــوم» إبان حكم الأســرتين ١٩ ، ٢٠.. وقـد اتخذ فرعـون مصر آنذاك «يو – ســفايس» منهــا قاعـدة لعملياتــه الحربية، لتأمــين مناجم ســيناء، ويرجع – على الأرجح – تسمية السويس على اسمه. !

وأثناء حكم اليونانيــين لمصر، أطلقوا عليها «هيروبوليس» ومعناها «مدينة الأبطال» .. ثم تغير اسمها إلى «كليزما» ومعناها باليونانية «نهاية الطريق» وعندما حكمت كليوباترا مصر أطلقت عليها «كليو باتريس» .

وفــى العصر الرومانــى، أطلق عليهــا «هــيرو – أوى» أى «مدينة الشــمس» .. وفى العصر البيزنطى أعيد اسمهــا «كليزما» .. حتى جاء العرب وحرفوا هذا الاسم إلى «القلزم» .

فــى القرن التاســع الميلادى، أصدر خمارويه بــن أحمد بن طولون (٨٦٤ – ٨٩٥ م) أمرا بإلغاء الأسماء القديمة، وأطلق عليها «الســويس» الذى لا يزال اسم المدينة الصامدة إلى الآن.

وفى القرن العاشــر الميلادى، أنشأ الفاطميون ضاحية جديدة جنوب غربى مدينة القلزم، أطلق عليها السويس، ما لبثت أن ضمت إليها القلزم القديمة، التى حلت محلها، وأصبحت ميناء مصر على البحر الأحمر.

وفـى ٢٥ أبريل عام ١٨٥٩ ، بدأ حفر قناة السـويس، والتى سـال فيها دماء ١٢٥ ألفا من المصريين، حيث دفنوا فيها بسـياط السـخرة، بلا أكفان (!!) إلى أن افتتحت فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٨.

وتاريخ السـويس - فيما بعد - هو تاريـخ مصر، وهى تمثل كتيبة متقدمـة من كتائب النضال المصـرى، ولعل ما حدث فى كفر أحمد عبده (طريـق القاهرة - السـويس) عند الكيلـو ٩٩، يعد شـاهد عيان قويا على تجبر القوى الاسـتعمارية، ممثلة فـى البريطانيين حينما دمروا «هذا الكفر» فى العام ١٩٥١ ، نتيجة تصدى الفدائيين لإرهاب الإنجليز، فكان الجزاء التدمير الكامل، سوف تظل «مثل هذه القرية كمثل دنشواى منقوشـا على صفحات قلوب المصريين أثرا باقيـا للفظائع وأعمال الظلم والجبروت التى ارتكبها الاحتلال البريطانى فى أرض الوطن» .

وفى إطار تتابع التاريخ، تدخل معركة السويس ١٩٥٦، لتشكل فصلا من كتاب الحرب والنضال للشعب المصرى، وقد نظر المعتدون إلى السويس - نظـرة مغايـرة - فى خططهم الحربية، إذ إنها - أى السـويس - قاعدة رئيسـية لتموين حامية شرم الشيخ وجزر سـنافر وتيران وميناء الطور، كما أنها تزخر بمعامل تكرير البترول واستخراج مشتقاته.

وبالاسـتيلاء على السـويس، تصبح قاعدة للزحف إلى الغرب نحو القاهرة، لكن قذائف مدفعية السـواحل المصرية كانت بالمرصاد للسـفن المعادية ، كما تصدت المدفعية المصرية لطائرات العدو، والمقاومة الشعبية جاهزة «للقنص» وفشـلت القـوى المعادية فى الاسـتيلاء على المدينة،

كما فشلت في حربها بشكل عام.. وكان النصر، انطلاقة كبرى للشعب العربي في مصر، إلى أن جاء ٥ يونيو الحزين.

..

وبحلول ٥ يونيو ١٩٦٧.. يبدأ فصل جديد، من كتاب الحرب.. فقد كانت مصر «المتوهجة» .. الماضية قدما في طريق البناء والتنمية. . مصر عدم الانحياز، وحركات التحرر في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، مصر الكتيبة المتقدمة في مواجهة صلف الإمبريالية العالمية.. يأتي الخامس من يونيو.. ليوقف طلائع التقدم.

والتساؤل: كيف حال مدينتنا السويس ؟ كيف حال شعبها وهي في قلب المعركة ؟ !

وللإجابة عن التساؤل.. أقدم شخصية سويسية قلبا وقالبا.. لا يمكن للمرء أن يزور السويس دون أن يلتقي به.. وإلا فاته كل شيء، رائحة التاريخ، روح المقاومة .. إمكانيات المبدع في مختلف المجالات .. صديق السوايسة على اختلاف مشاربهم واعتقاداتهم ورؤاهم ! !

الرجل اسمه: كابتن غزالى.. واحد ممن صنعوا روح المقاومة، وصاغوها فنا رفيع المستوى، حتى أصبح واحدا من الأسلحة الهامة في سنوات الصمود والاستنزاف «٥ يونيو ١٩٦٧ - ٦ أكتوبر ١٩٧٣» .

وإن كان يبادرني: «أنا مواطن من المواطنين المصريين. شأنه شأن الملايين من أبناء الوطن الغالى، مجرد واحد من آلاف السوايسة، الذين لا يبخلون بما يعرفون ويعملون، عندما يكون الوطن في حاجة إلى جهدهم.

ويؤكد الرجل (٧٠ سنة) : «ما كنتش في يوم أحلم بنشان.. ولا حتى يوم يبقى لى شـأن !! إنما ما أؤمن به، وأعتقده: بأن قيمة الإنسان هي في قيمة دوره في الواقع، كما أنه لا شـيء فـي الدنيا يعوض عن قيمة «إنك حي وعايش» خصوصا إذا كنت «سويسيا» !

وغزالي - الذي يتنفس السويس ولا يستطيع أن يغادرها إلى أي مكان في الدنيا، لأنه في ذلك مثل السمك، إذا خرج من الماء: مات !!

- أسأله عن السويس صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ ؟

- كان الناس قد علقوا الورود على رقاب المدافع.. فضلا عن أنهم كانوا يغنون للجيش المصري.. مأخوذين في ذلك بالتصريحات التي أعلنت، لأن المسألة عبارة عن ساعات ونسمع صوت الراحل العظيم من تل أبيب !

بهذا التفـاؤل كان الناس يعيشـون، ويفتحـون بيوتهم للجيش، تساعده، وتدعمه في كل شيء !

لكن فـي ظهر يـوم ٥ يونيو، ولأن السـويس الأقرب إلى سـيناء. لا يفصلنا عنها سـوى ١١٠ أمتـار هي عرض القناة .. فقـد عرفنا قبل غيرنا، بالهزيمة الكاسحة !

والسـويس - والكلام مازال للغزالي - مدينـة متفردة، حظ المواطن فيها كبير، لذلك شـهدت سنوات الستينات توهجا، أفرز نشاطا ثقافيا وسياسـيا واجتماعيا، فضلا عن «البسـطة» في المعيشـة، لذلك لا تجد هناك أزمات بطالة، ٩٠٪ من أهلها يعملون في البحر، ويحتكون يوميا بالحضـارة، كل ذلك جعلها - دائما - مدينة متوثبة، وقد تواصل ذلك

مع تاريخها، إنها مدينة في مقدمة المدن المصرية المعرضة دوما للشرور الاستعمارية.

- كابتن غزالى: ما حدث فى ظهر يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ فى السويس، سوف يظل محل تقدير، وإن كان يحتاج لدراسة، وتقييم، وتحليل، ذلك أن تجربة السويس هى فى الواقع تجربة شعب، وتجربة عمل وطنى، أعتقد أنه مازال صالحا لتطبيقه لدى كل الجماعات التى تحب الوطن.

هل أوضحت لنا، كيف استقبل شعب السويس الهزيمة ؟ وماذا فعل الشباب السويسى إزاء ذلك ؟ هل لطم الخدود، أم تحرك فى اتجاه ثان !؟

- يقول: الناس فى السويس - كانوا - مهيئين لرفض الاعتراف بالهزيمة، وبدأوا على الفور فى التعامل مع الجيش، باعتبار أنهم «أولادهم» .. وأنهم «خدعوا» .. شأنهم فى ذلك شأن الشعب المصرى، وأنه لم يقدر لهم أن يحاربوا، أو يواجهوا.

وقد بدأ مجموعة من الشباب السوايسة تفكر بسرعة - فى وقت تعطل فيه التفكير على المستوى الرسمى - كيف نعمل على ألا تسيطر الهزيمة على الناس ؟

إذن علينا أن نكوّن «مجموعة إعلامية ترمى كلاما وسط الناس»، خصوصا وأن هناك فرقا كبيرا «بين النصر عالى الصوت، والهزيمة التى تراها العين» !!

وكونـا لجنة أخرى، بدأت تدعو إلى «تجييـش» المدينة، وانطلقت مجموعات من الشباب تهيئ المدارس لاستقبال «العساكر الشاردة» فضلا عن حمل المصابين إلى المستشفيات للعلاج.

إذن لا بديل عن المقاومة.. لا سيما وأن معظمنا كانت له سابق ممارسة في حروب ٤٨، ٥١، ٥٦، فضلا عن تجربة السويس المريرة مع الاستعمار، حيث كان يسكنها في العام ١٩٥١ نحو سبعة آلاف أسرة بريطانية.

بهذا الوعي: انطلق كل الناس، في حالة من حالات الإصرار والاستماتة في الدفاع عن المدينة، ولم يكن أمامنا سـوى «تجييش» الناس، وفضلا عن اللجان السـابقة، شكلت لجان تبحث عن العساكر الشاردة في تيه سيناء، وذلك من خلال شباب يعرف دروب سيناء جيدا.. وتسليمهم لوحداتهم.

ظلال ٥ يونيو كثيفة!

لذلك علينا أن نفكر بشـكل استراتيجى لمعايشـة هذه الظروف، لأن الحرب لن تنتهى في يوم وليلة.. إذن لابد من تدريب الناس على السلاح، لذلك كانت كل شوارع السويس في فترة وجيزة «مجيشة».. وفي مواجهة مع الإسرائيليين على طول ضفة القناة برغم آلياتهم وإمكانياتهم.

بدأنا في نظام إعلامي، بشرط أن يكون للناس – هنا في السويس – دور المشـارك في الحوار، شرحنا فيه أبعاد المسـئوليات الملقاة على عاتقنا – والتى تحملها الأيام القادمة، وتدبرنا سـويا مصير السـويس، خصوصا وأن الاعتداء الاسـرائيلى كان يوميا على المدينة، لاسـيما وأنه لا توجد

حدود بيننا وبينهم سوى عرض القناة، هنا، فإنه لا يوجد محل «لصفارة الإنذار» لأنه في «ثانية واحدة» كنا نجد الطائرات فوق رءوسنا !!

..

لقد باتت المدينة كلها تحت الخطر، فكان لابد، وتبعا لذلك، أن يكون عملنا في هذا المستوى من المسئولية، لذلك فقد استجاب الناس لدعوتنا، بل أكثر من ذلك، فقد قام الشباب السويسي بعمليات فدائية على جانب كبير من الشجاعة والإقدام، مثلما فعل محمد عبد ربه، الذى سبح في القناة وأبطل مسرحية إسرائيلية كانت تستهدف الاستيلاء على نصف القناة الشرقي، بأن أبطل قناديل كان قارب اسرائيلي يقوم من خلاله بتثبيت علامات.. بل إنه أسر الجنديين.!

..

– من الواضح يا كابتن غزالى.. أن أشكالا متعددة من المقاومة، قام بها الشباب بقيادتك.. حدثنا إذن عن التجربة الإبداعية والفنية التى صاحبت المقاومة، والتي استهدفت – بالأساس – تنمية عناصر المقاومة الذاتية عن طريق الفن ؟

– بداية: معروف عن السويس أنها مدينة تغني، فضلا عن كونها مدينة فلكلورية، ولأن الفن واحد من الأسلحة الخطيرة جدا، في تنمية عناصر المقاومة الذاتية، لذلك كان يلزم استحداث أشكال من الإبداع تعايش الناس، خاصة «الفنوة» بشرط أن تحمل مضامين تساعد الجنود على أن يعيش حياته «كإنسان» على أن تتحول «الحبيبة» إلى «وطن» وإلى «كرامة».

هـذا فضلا عن دورنـا فى إعلام الوطن بكيفيـة أو بأخرى، بالواقع الموجود فى السويس، كنا نستهدف من تجربتنا الفنية «تجييش الوطن كله» لمواجهة هذا العار الذى فرض علينا.

هنا ظهرت فرقة «ولاد الأرض» التى أنتجت ٤٨٣ نصا خلال ست سنوات هى وثائق فى السياسة، والعمل الوطنى، فضلا عن أنها كانت ظاهرة حقيقية للمقاومة، من خلال توظيف الأدب الشعبى مستهدفة إعادة صياغة الوجدان المصرى، من خلال رفض الهزيمة، وعدم الاعتراف بالأمر الواقع.

غنينا الذى يجب أن يكون.. وليس ما هو قائم:

ابـوح يـا ابـوح
دم البلـد مسفـوح
يـا صاحب البقـرة
يـا زراع الشجـرة
تطـرح وتديهـم
والطـور فيهـم
بـاعونـا للكفـرة !

وقلنا:

ماتقوليـش
ماتعدليـش

حـل واحـد غـيـره مـفـيـش
لأجل ولادنـا الجاية تـعـيـش
الحرب الحرب.. وغيره مفيش
قـــوة أمـــريـــكـــا
أمـــور بـــولـــتـــيـــكـــا
حلف الأطلنطي مايهزمنيش!

..

من هنـا كانت الأغنيـة هي الوسـيلة المتاحة – كمـا يقول كابتن غـزالي – بعد أن احتـل الجيش المصرى مواقعه، وجـدد دماءه وأصبح هناك «تراشق» بين الطرفين، أو ما سمي بـ «حرب الاستنزاف».

كان علينا أن نصبح في خدمة القوات المسلحة، وأن نحرس المنشآت وأن نغني.. أى إن الموقف كان يسـتلزم أن يكون لنا معايشة حضارية، نقرأ ونكتب ونرسم ونمثل ونغنى ونرقص، فضلا عن أننا نحارب !

وقد أفرز هذا الإبداع مسـرح الخندق، وسينما الخندق، وغنوة ولاد الأرض.

– وبماذا تفردت ولاد الأرض ؟

– تفردت بالغنوة الجماعية، التي يمكن ترديدها بأى مجموعات، وبأى أصـوات، فضلا عن أنها كانت تقوم بنقل أخبار الاسـتنزاف من الجبهة إلى باقى الوطن عن طريق «الغنوة» !

بل لا أغالى والكلام لغزالى إذا قلت: إن أغنية ولاد الأرض كانت عبارة عن «منشــور سياســي» يحمل تعبيرات الناس، ولغتهم، ومقولاتهم، ويحملها مضامين تدفع إلى الصمود، والمقاومة الذاتية:

مــش هــانـســلــــم
لا.. لا
رأى الشعب صاحب الحق
رأيـــه قـــالـــه وعــالــى
عــالـى.. عــالـى.. عــالـى
يــوم ٩، ١٠ يــونــيــو
دفــع ثــمــنــهــم غــالــى
مــش هــانــســلــــم
لا.. لا

...

الفتوة هنا تحرض على عدم الاستســلام، ورفض الهزيمة والسير قدما في طريق النضال.

..

وفي المشــوار.. مشــوار الصمود علــى أرض الســويس كانت أغنية ولاد الأرض، دافعــة للصمــود، متفائلــة واثقــة، تحلــم بغــد يحمل نصرا حتميا:

فات الكثير يا بلدنا
مابقاش إلا القليل
إحنا ولادك يا مصر
وعينيك السهرانين
نصرك أصبح نشيدنا
واللي يماديـنا مين
بينا يالا بينا
نحرر أراضينا
وعظم اخواتنا
نلمه.. نلمه
نسنه.. نسنه
ونعمل منه مدافع
وندافع
ونجيب النصر
هدية لمصر
نكتب عليه أسامينا

- كابتن غزال: كنت أنت الشاعر والملحن والموزع والقائد، في تجربة «ولاد الأرض» .. هل هذا صحيح؟

– كنا تجمعا واحدا،متفاهما، أحلامه واحدة،وموقفه واحد، لذلك يمكن أن نقول: إن «ولاد الأرض» كانت تجربة جماعية إلى حد الشيوع، أى واحد يمكن أن يؤلف، أو يكتب، أي واحد يمكن أن يلحن، والحقيقة الثابتة فى هذه التجربة، التي انطلقت مع طلقات المدافع، أن الفنوة كانت تستلهم من الواقع، وأكتبها كشاعر وأطرحها – فى الخندق – للمناقشة.

كما أن الظرف كان يملى علينا شكل الكتاب، وكان من حق كل واحد فى الجبهة أن يقول (فرد فى المقاومة – طبيب – عسكرى – ضابط) .. من هنا خرجت التجربة بشكل ديمقراطى، ولم تكن الفنوة – هنا – تطريبية، إنما كانت تعبيرية، لبعث الهمة والحماس بين الناس «عسكريين ومدنيين» .

..

كانت ست سنوات عاشتها السويس تحارب وتغنى، وأى شعب هذا الذى يغنى للنصر، وهو مهزوم، وأى شعب هذا الذى أنتج أعظم أنواع الأدب والفن فى سنين الهزيمة.

هى – بالقطع – مقاومة ذاتية، نوع متفرد من الشجاعة، سيجله التاريخ حتما !!

ست سنوات «تحضير» لأكتوبر النصر.

ابتسم..
أنت فى الاسماعيلية ؟

مدينة

الإسماعيلية.. مدينة رقيقة. . باسمة.. ثانى مدن شط القناة.. المشاركة دوما بإنسانها فى التراجيديا، التى صنعتها ظروف المكان والزمان.

وإذا كانـت سـيناء ميناء بوابة مصر الشـرقية ، فقـد كانت أرض الإسماعيلية متداخلة مع سـيناء قبل شـق قناة السـويس، لذلك فهى النطاق الأوسـط، والمثلث الشمالى للصحراء الشرقية، ولم يكن بها سوى البحيرات المرة الكبرى والصغرى، وبحيرة التمسـاح، التى كان يعيش على شـواطئها بعض القبائـل العربية التى تشـتغل بالرعى والصيد، وتعتبر أرض الإسماعيلية مفتاح هذه البوابة .

والثابت تاريخيا أن أرض الإسماعيلية قد عبرها العديد من الأجناس قبل الميلاد سواء القادمة من جهة الشرق، أم الشمال الشرقى، ثم الغزو التركـى، كما كانت – هذه الأرض – مسـارا للأنبياء والرسـل عليهم جميعا الصلاة والسلام، فقد مرّ بها أبو الأنبياء إبراهيم وزوجته سارة، ومن بعده يوسـف وأمه، ثم يعقوب حين أرسل إليه ابنه يوسف عليهم جميعا الصلاة والسلام.

وتتعاقب صفحات التاريخ في هذه المنطقة، إلى أن جاء الفتح الإسلامي، ودخل عمرو بن العاص وجنوده مصر، متخذا طريق سيناء ليصل إلى العريش، ثم يحاصر مدينة الفرما.

ويأخذ تاريخ الاسماعيلية شكلا «متصاعدا» بحفر قناة السويس في ٢٥ أبريل ١٨٥٩، بينما في ١٨ نوفمبر ١٨٦٢، نشهد تدفق مياه المتوسط في بحيرة التمساح، وفي ١٨ مارس ١٨٦٩ ثم وصل البحر المتوسط بالبحيرات المرة، وفي ١٥ أغسطس ١٨٦٩ تم وصل البحر الأحمر بالبحيرات المرة، إلى أن تم افتتاح القناة للملاحة في ١٨ نوفمبر ١٨٦٩.

وبحفر قناة السويس وما تلاه من أحداث، تشكل فصولا من ملحمة الإنسان العربي في مصر، في صراعه مع القوى الاستعمارية، حيث تكلف المصريون - مبدئيا - في الحفر معاناة ١٢٥ ألفا منهم، تداخل عرقهم مع دمهم مع دمعهم، في تراجيديا، سجلها التاريخ بأحرفه، ليقول دوما: البقاء لأصحاب الحق، الأرض، والعرض.

لذلك: فإن الإسماعيلية بصورتها الحالية، كانت كمدينة نتيجة لمشروع ربط البحرين الأبيض والأحمر عن طريق قناة السويس، وهو المشروع الذي حل محل القناة القديمة، التي كانت تربط بين البحرين عن طريق قناة النيل، وقد قامت بالفعل - هذه المدينة - مع افتتاح القناة العالمي للملاحة عام ١٨٦٩، حيث شهد هذا الافتتاح ملوك العالم ورؤساؤه، وظلت القناة عبئا على مصر بعكس ما كان مستهدفا منها،

وصـارت مطمعـا للدول الغازية خاصـة بريطانيا، التـى أصدرت أمرا لأسـطولها باحتلال كل من بور سـعيد والإسماعيلية، في الوقت الذى لم تجـد فيه «المقاومة» نظرا لخيانـة خديوى مصر آنذاك، التي مهدت لدخول الإنجليز الاسماعيلية، وجعلها أكبر قاعدة بريطانية في الشرق الأوسـط، ثم تجدد النضال مـرة ثانية لتعـود الإسماعيلية إلى أحضان أمهـا «مصر» في العام ١٩٥٦.. ليكتب فصلا جديدا من فصول تراجيديا الإنسان المصرى على شط القناة.

والاسماعيلية كانت تعرف قديما باسـم «قرية التمسـاح» وسميت بالإسماعيلية.

وقد ارتبط اسـم الإسماعيلية بجميع معارك التحرير التي خاضتها مصـر، وفي الخامس من يونيو ١٩٦٧ تعرضت في ذلك، شـأنها شـأن التوأم «بورسـعيد والسـويس» للعدوان الإسـرائيلي، وكانت مركزا للهجوم حيث تعرضت لنيران العدو اليومية طوال حرب الاسـتنزاف، ممـا أدى إلى هجـرة أهاليها وناسـها إلى مختلـف المحافظات، حتى معركة السادس من أكتوبر ١٩٧٣.

ولأكتوبر وقع خاص في الإسماعيلية، ففضلا عما تم إنجازه في عام ١٩٧٣، فان عام ١٩٥١ قد شـهد في اليوم السادس عشر من هذا الشهر اندلاع الشـرارة الأولى لحركة المقاومة الشـعبية ضـد الإنجليز، حيث خرجـت أول مظاهرة من طلبة المدرسـة الثانوية والتي طالبت بتحرير أرض القناة وطرد الإنجليز.

أما في اليوم الخامس والعشرين من يناير ١٩٥٢ ، فقد ارتبط بتضحيات «الإسماعيلاوية» مع إخوانهم في جهاز الشرطة، حيث اشتعلت الثورة ضد الغاصب، وقد احتلوا مبنى المحافظة، وقامت معركة ضارية برغم عدم التكافؤ التسليحي بين العدو وأبناء الإسماعيلية وجهاز الشرطة.

وتتوالى الأحداث الدرامية، وفي قلبها الإسماعيلية، بدءا من العام ١٩٥٦ ، ووصولا إلى الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، ثم الفترة الزاهية في تاريخ الإنسان المصري، الذي أكد قدرته على المقاومة الذاتية المتنامية داخله، حتى كان السادس من أكتوبر، فأحداث الثغرة، ثم التفاوض، وصولا إلى ما نحن فيه الآن.

بورسعيد..
قصيدة عشق فى الوطنية

بورسعيد

.. قصيدة عشــق في الوطنية.. وقصة كفــاح على مر الزمن.. ومطمع غزاة الغرب، ومحطة القادم والمسافر.. بوصفها مدينة محاطة بالمياه.

ففى الشمال البحر المتوسـط، وفى الجنوب الغربى بحيرة المنزلة، وفى الوسط تخترقها قناة السويس.

والثابــت تاريخيا، أنه لم يكن في موقع المدينــة عند مدخل القناة أى تجمع بشــرى، بل كانت هناك قريــة للصيادين عند «الجميل» التى تبعـد غربا بنحــو ٨ كيلو مترات، وعلى قرابــة ٢٨ كيلو مترا، كانت هناك مدينة ساحلية اندثرت معالمها منذ قرون، كانت تسمى «برامون» أى مدينــة الإله «آمــون»، ثم أقــام اليونانيون ضاحيــة لهما أسموها «بيلوز» وقد انســحب اســم «بيلـوز» على الموقع كله، فســميت منطقة «بيلوز» ومعناها «الطينة» لكثرة الأوحال بها، وهى مواجهة لما يعرف باسم «برمون» أو «برما».. ومنها أسماها العرب «الفرماء» وهى المدينة المعروفة حاليا بـ «تلال الفرما» التى كانت مدخل المسلمين إلى مصر.

□ ومــن موقع الفرمــا كمدينة حدودية ســاحلية، كانت - بالتالى - مســرحا للعديد من المعارك الحربية والغزوات العســكرية وبالتالى كانت

حصنا متقدما للدفاع ضد الغزاة، وقد أعيد بناء حصونها عدة مرات، إلا إنها انتهت على يد الملك «بلدوين الأول» ملك بيت المقدس أثناء غزوات الصليبيين على مصر في العصور الوسطى، وتحديدا في العام ١١١٨ م.

□ وبور سعيد اسم مركب من «PORT» ومعناها ميناء وكلمة «سعيد» حاكم مصر وقت منح امتياز حفر قناة السويس، الذى بدأ مع صباح يوم ٢٥ إبريل ١٨٥٩، عندما رفع العلم المصرى على الموقع، حيث ألقى الفرنسي ديلسبس كلمة وسط العمال والفنيين من الأجانب والمصريين الذين استجلبوا من قرى دمياط وفارسكور وكانوا نحو سبعين عاملا.. «باسم شركة قناة السويس العالمية البحرية وتنفيذا لقرار مجلس إدارتها نضرب أول معول في هذه الأرض لنفتح أبواب الشرق لتجارة الغرب وحضارته عن طريق مدخل الشرق» .. ثم أمسك بالمعول وضرب به الأرض مبتدئا أعمال الحفر.. ورحلة النضال للشعب المصرى في بورسعيد، التي كتب أبناؤها بعرقهم ودمهم ودموعهم تراجيديا الإنسان المصرى على شط القناة..

الفدائية هواية !

□ والثابت تاريخيا.. أن إلغاء معاهدة ١٩٣٦، قد واكبه على صعيد الوطن بأكمله حركة سياسية وطنية نشطة واكبتها - أيضا - ظهور نشاط الفدائيين ضد معسكرات الإنجليز منذ عام ١٩٥٠، حيث شهدت تصاعدا في عام ١٩٥١.. وإن كانت ذروتها في عام ١٩٥٦.. مع العدوان الثلاثي على مصر.

□ والواقع أن عدوان ١٩٥٦ ، لم يكن وليد تأميم قناة السـويس فقط، ولكنه كان مخططا اسـتعماريا لإجهاض الحركة الثورية فى مصر التى بدأت ملامحها تتضح مع فجر ٣٢ يوليو ١٩٥٢..

□ وأثبتت المقاومة الشـعبية التى أقسـم رجالها وأطفالها ونساؤها علـى البـذل والعطاء من أجل الوطن فـكان لهم مـا أرادوا.. الوطن من نصيبهم والشهادة من نصيبهم والعزة والكرامة من نصيبهم أيضا..

□ وعندما يسـجل التاريخ وقائع ما حدث فى بورسعيد وهو يغنى على أوتار السمسمية:

مـور هـاوس ليه بـس جـيـت
مـن لـنـدن هـنـا واتـعـديـت!

وبـتـظـلـم آه ولا خـلـيـت
واهـى مـوتـك جـوه الـبـيـت!!

ويقول التاريخ أيضا مع البورسعيدية:

بـحـروف مـن نـور وحروف مـن نار
اكـتـب يـا زمـان مـجـد الأحـرار
مـقـدرش عـلـيـه الاسـتـعـمـار!!

فإنه سيدرك أن النصر، كان من نصيب الحق، وكان الحق - ولا يزال - من نصيب الشعوب التى تبحث عن حريتها، ومنها مصر بطبيعة الحال..

حسن أحمد: عضو مجلس الشعب المصرى (السابق) وأستاذ الإدارة بجامعة قناة السويس، عاشق بورسعيدى، أو قل «درويش» في جب هذه القطعة الغالية من أرض العرب «بورسعيد» .

يقولون عنه في المدينة الصامدة، إنه «رجل موسوعي» «فهو صاحب عقلية مرتبة، يعى الحقائق التاريخية، وعيا سياسيا واجتماعيا، وقد أفاده جيداً قراءاته ودراسته المتعمقة في علم الاجتماع والجغرافيا السياسية (!!) خاصة، وأنه واحد من تلاميذ كل من عالم الاجتماع الكبير د. سيد عويس، والدكتور جمال حمدان صاحب أعظم مؤلف في القرن العشرين في مصر «شخصية مصر» .. وقد أعطاه ذلك رؤية بانورامية علمية للتاريخ المصرى خاصة في هذه المنطقة.

وكان الحوار معه – خاصة وأنه لم يبرح بورسعيد طوال عمره – !! متعة ذهنية وعقلية، أضفت على ملفنا الإنسانى، فهما متعمقا وعلميا لشخصية البورسعيدى المقاوم، المحب للبقاء على أرضه !

– قلت: أستاذ حسن.. ونحن بصدد الحديث عن «قصيدة عشق» اسمها «بورسعيد المقاومة» المناضلة، عبر مائة سنة أو يزيد.. دعنى أسألك: عن سمات الشخصية البورسعيدية، الرافضة، الصامدة ؟

– يقول في تأمل: تكونت السمات الخاصة للشخصية البورسعيدية عبر أجيال، وانصهرت النوعيات المختلفة التى قدمت إليها عبر السنين، وأصبحت شخصية ذات معالم واضحة، وكانت البداية في عام ١٨٥٩.. حيث قدم الفوج الأول من عمال الحفر المشاركين في القناة من محافظة الدقهلية، أما الفوج الثانى، فقد جاء من محافظة الشرقية.. ثم توالت

أفـواج أخرى من: الدقهلية، الشـرقية، صعيد مصر خاصة من أسـيوط الواصلـة حدودها - في هـذا الزمان - إلى ما بعد سـوهاج.. وإن كانت عناصر قليلة جاءت من المنيا وقنا وأسوان، والغربية من شمال مصر.

انصهرت هذه النوعيات، أو تلك العناصر في محافظة، بيئتها فقيرة، لا زرع فيهـا ولا نبـات كل مـا تأكله «مسـتورد» عـبر حدودها !! فهـي منعزلـة عن جيرانها بمسـاحات مائية ضحلـة، حيث تفصلها بحيرة المنزلة عن محافظتي الدقهلية والشـرقية، وعن سـيناء بحيرة البردويل، وإن كانت بورسـعيد مميزة في الموقـع بأنها تقع في أقصى شمال شـرق الدلتا، كما تقع على مشـارف البحر المتوسط، وتخترقها قناة السويس، وهي بذلك تعد البوابة الرئيسية لمصر، والتي يدخل من خلالها القادم من أوروبا إلى بلاد العرب كلها.

وقد فرضت هذه البيئة على السـكان عبر العصـور، فعالية البحر، أو الصراع معه، ولذلك يحلو لي أن اسمي إنسان بورسعيد: «الإنسان الذى يغالب الطبيعة الفقيرة» !! فعليه - إذن - أن يستنبط قوته من الطبيعة، كيف يأكل ؟ كيف يعيش ؟ أين يعمل؟ ومع من يعمل ؟

هكذا فرض على المواطن البورسـعيدى في تاريخنا كله، والذى يبدأ من ٢٥ أبريل ١٨٥٩، تاريخ أول فأس ضربت في أرض قناة السـويس، وأول علامة لقيام هذه المدينة، والتى سميت على اسم حاكم مصر آنذاك، أن يغالـب الطبيعة، فضلاً عـن أنه أمامنا مرفق اقتصـادى هام تعيش من خلاله «قناة السـويس» وميناء بورسعيد، وإلى ما قبل المنطقة الحرة

في العام ١٩٧٥.. كان يقدر عدد الحرف التي تعمل في الميناء، بطريق مباشـر أو غير مباشر بنحو (٦٢) حرفة.. ذلك يعطي مؤشرا بأن معظم المواطنين الذين يعملون بطريقة مباشـرة أو غير مباشرة، هم يعملون - فـي واقع الحال - بشـكل مذبذب و غير مسـتقر، وتلـك طبيعة عمل الموانئ بشكل عام في كل الدنيا.

لذلك فقد خضعت بورسـعيد لظروف الاقتصـاد العالمي، فإذا كانت هناك حركة اقتصادية «مزدهرة» عكست نفسها على مواطني بورسعيد، والعكس كذلك من خلال الكساد العالمي، الذي يفرض ظلاله على حركة العمـل في المدينـة.. وهذه الحركة الملاحية من خـلال «الميناء والقناة» جعلت المواطن البورسعيدي يذهب صباحاً إلى الميناء ويكد، ويتعامل مع جنسيات مختلفة، فرضت عليه أن يكون «أكثر مهارة وحرفية».

وعامل آخر.. لعب دوراً في تركيبة الشخصية أن البيئة البورسعيدية، لم تكن - في البدايـة - تحمل طبيعة بيئة المدينة، ذلك أن المجموعة الأولى التي تولت عملية الحفر في القناة، والتي بلغت ٨٢ رجلا، كانوا من ريف مصر، من الدقهلية، خاصة مركز فارسكور.

ذلك فضـلاً عن أن المدينة فيما بعد، كانـت محطة للهجرة العالمية، يونـان، إيطاليين، يوغسـلاف، وهذا الاختـلاط الغريب من الأجناس، انعكس على طبيعة حياة البورسعيدي فالعاملون هم المصريون، وأصحاب العمـل هم الأجانب !! .. وقد اسـتطاع المصريون فـي مراحل عديدة من تاريخهم على أرض بورسعيد، إثبات وجودهم خصوصا بعد عام ١٩٥٢.

وأسـجل للتاريخ أنه قبل عـام ١٩٥٢ كانت فـرص إثبات الوجود «محدودة» أما بعد ٥٢، ٥٣، ٥٤ فقد زادت نسبة البورسعيدية الباحثين عـن «إثبات الوجـود» بدرجة كبيرة.. ذلـك أن الجميع كان يبحث عن فرصة الحياة والمستقبل خاصة من الشباب، وبعد رحيل أعداد كبيرة من الأجناس الأجنبية التي كانت تعيش هنا في بورسعيد .

أقـول هنا: إن هذا الاختـلاط العجيب بين المصريـين والأجانب، جعل «البورسـعيدى» أكثر إصراراً على إثبـات وجودهم، والذين قالوا للأوروبيـين الراحلين: «إننا- المصريين- قـادرون على إثبات قدراتنا الذاتية ليس أمامكم فقط، ولكن أمام العالم كله» !!

ودعني - أضرب مثلا هاما لهذه المشكلة المتفردة - إنه عند «الإعصار العدوانـي في ١٩٥٦، كان التسـاؤل: هل يترك البورسـعيدى المدينة. أو يتصدى بمصريته لهذا الإعصار.

والإجابـة - كما سـجلها التاريخ هو البقـاء والتصدى بكل القوة.. ومثال آخر على شجاعة المصرى في بورسعيد، أنـه عندما دخل الإنجليز مصـر في عـام ١٨٨٢ - وبطبيعة الحـال لم أكن قد ولـدت بعد.. لكن سمعـت وقرأت وسـجلت في بحوثي خرج المصريون في بورسـعيد مع عرابي ليعرضوا مطالبهم بكل شجاعة وبسالة، ولم يهابوا القتل، وأذكر أن من بين آثار بورسـعيد القديمة قرية تسمى «أحمد عرابي» التي كان قد استوطنها بعض مقاتلي عرابي، وهي تقع أقصى غرب بورسعيد.

إذن: المواطـن البورسـعيدى - فـي كل مراحل حياتـه - لم يتأثر

بأى عدوان، أو تيارات أجنبية وافدة عليه.. وأضرب مثلا فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) هل تعاون المصريون مع الإنجليز؟ أبدا لم يحدث!! .. وأريد أن أسجل: أن العامل البورسعيدى كان - دوما - أمينا على مصالح بلاده، وقد ذكر د. النجيلى فى دراسة هامة له أن أول أحزاب لعمال الموانئ فى مصر، وأول مناداة بتأميم قناة السويس على أن يديرها مصريون كان من نقابة عمال بورسعيد فى العام ١٩٢٣ حيث كانت هذه النقابة تضم مصريين وأرمن !!

كما يذكر التاريخ.. أن عمال بورسعيد من خلال نقابتهم فى عامى ٤٨ و ١٩٤٩ تصدوا للشركة الفرنسية، وطالبوا الإدارة بحقوقهم، التى حصلوا عليها بعد سلسلة من المصادمات العنيفة والإضرابات.. وأنه فى عام ١٩٥١ كانت هناك حركة نشطة أسفرت عن مقاطعة السلع الأجنبية فى الميناء.

والمواطن البورسعيدى لا يهاب شيئا.. يعلن رأيه فى جرأة وبساطة.. دون حس نابض بالمتغيرات السياسية، والدليل أنه مع بداية عدوان ١٩٥٦، قام بحرق «العلم» الانجليزى، الأمر الذى أثار رئيسى وزراء انجلترا وفرنسا، فضلاً عن أنه بعد عام ١٩٧٣.. والمدينة «خربة» عاد المواطن البورسعيدى «بشوق» واستطاع بشجاعة مواجهة دمار المدينة !!

التغيير.. لماذا ؟

- أستاذ حسن: أى شخصية لها ظواهرها الفولكلورية.. فى شكل «تحية الصباح، الأفراح، مساعدة الغرباء» أى الوجه الإنسانى الآخر

للشـخصية.. وكانت هنا في بورسعيد عادات راسخة.. مثلاً في تحية الصباح كانت «صباحين وحته يا بوص» ! تغيرت الآن إلى «صباح الخير، بونجور، جود مورنج» بماذا تفسر هذا التغيير.. أو ذلك التراجع ؟!

- يقـول في ثقة الباحـث: لم تتراجع: ولم تتغـير أى من سمات البورسـعيدى، ولكنه ما حدث، إنها اتخذت شـكلا آخر، فى أغانينا أو عادتنـا أو أفراحنـا حيـث ارتبطـت بالعصر الحـالى.. مثلا أغانى السمسـمية والبمبوطيـة.. فقـد نشـأت مـع عمليات الحفر فـى قناة السـويس، حيث الليل الطويل المرهق، والشـمس الحارقة، فهم أناس يريـدون الترفيـه عن النفـس، وذلك من خـلال الغنوة علـى آلاتهم الوترية البسيطة، ومع انتقال عمليات الحفر إلى الجنوب في القنطرة، وفى اتجـاه السـويس، زحفت هـذه الأغانـى، وإذا كانـت الأغنية الفلكلوريـة - فى بورسـعيد - غير مطورة، ففـى الإسماعيلية أضاف عليها عمال الحفر (من الأقصر وقنا) الذين كانوا يحتفظون بأغانيهم، بعض كلماتهم، فحدث الخلـط واللهجات الصعيدية فى الأغنية وأؤكد أنـه من خلال قراءة دقيقة لأغانى السمسـمية، تبين أنها متداولة بين بلاد العرب جميعا !!

وهناك أغانٍ تسـمى «الضمة» وهى التى يغنيها عدد من الناس، تبين من الدراسـة الفلكلورية أنها ليسـت بورسعيدية الأصل، إنما وافدة من «دمياط» وإن كانت فى الأصل «أندلسية» !! جاء بها البحارة العائدون من رحلة سفر شـاقة ومتعبة، فعندما يصل إلى بر المدينة (دمياط) يستقبله

أهله وعشيرته، منضمين فى أغنية جماعية، ترحيب به، وحتى الآن نجد أن السمسمية والضمة مازالتا موجودتين، وإن كانتا قد طورتا، وأخذتا الشكل الحضرى (الكهرباء فى السمسمية مثل الجيتار) !!

كما أن هناك خاصية أخرى للشعب البورسعيدى، وهى ظاهرة لم أجدها فى أى مدينة أخرى.. وهى أن أسماء الشوارع ترتبط بالدلتا.. ببساطة جداً نجد فى حى العرب (شارع الدقهلية وشارع الجيزة وشارع دسوق) إلخ.. وذلك يؤكد ترابط المواطن البورسعيدى بأمنا العزيزة مصر، وبأسماء محافظاتها !!

وتأتى خصوصية الأفراح البورسعيدية، فلماذا كانت لا تتسم بالفخامة الشديدة، إلا إنها متميزة ومتمسكة بتقاليد راسخة مثل زفة العروس و نقوطها وإن كان النقوط من نصيب القادرين فقط !!

كما أن هناك ظاهرة أخرى.. وهى أن بورسعيد مدينة لا تنام.. لأنها مدينة ساحلية مرتبطة بالميناء. لذلك نجد أن أى سفينة تدخل الميناء نهاراً.. أو ليلًا.. تجد من يتعامل معها.. فالشوارع مملوءة بالناس، والمحلات مفتوحة، وهذا «اللا نوم» يؤكد حرص البورسعيدى على مواجهة أى متغيرات اقتصادية، فمثلا أى متغير أو كساد اقتصادى، لا يوقف البورسعيدى عن السعى عن الرزق، بل إنه يجد أشياء أخرى يتكسب منها.. من هنا نشأت كلمة «بمبوطى» وهى من أصل «بوت» و «بان» أى قارب الخشب.. التى تحولت وحرفت إلى «بمبوطى» أى الباحث عن الرزق فى البحر !

هذا - والحديث للأستاذ حسن أحمد مازال البورسعيدى واثقا من ذاته والدليل على ذلك أنه لا يتورع في أن يقول رأيه بصراحة، محاولا إثبات صحة هذا الرأى بالبراهين والدلائل من القديم والحديث على حد سواء، فهذه العادة لم تتغير وإن كانت قد أخذت شكلا متطورا.

تنشيط الذاكرة!

- قلت: في إطار تنشيط الذاكرة.. وبحثا عن مدلولات سياسية ذات طابع إنساني.. استطاعت الشخصية البورسعيدية المصرية قلبا وقالبا أن تنحت لنفسها موقعا متميزا على خريطة النضال المصرى.. أعوام ٥١، ٥٦، ٦٧، ١٩٧٣.. إذن وبوصفك من أبناء هذه المدينة، وضح لنا هذه المدلولات من خلال مواقف إنسانية ؟

- يقول: سأذكر «لوحات» تعيها ذاكرتى من النضال البورسعيدى:

□ في صبيحة يوم وقف إطلاق النار في العام ١٩٥٦ وظهور القوات الغازية في شوارع بورسعيد، كان الناس في قمة التمرد على النظام، وظهر هذا اليوم تبدل الموقف تماما، وأشهد الله والتاريخ فإننى لم أجد مواطنا واحدا «رخوا» بل إن أعصاب الناس كانت متوترة ومشدودة إلى أقصى درجة بينما لم نكن نعلم حقيقة الموقف، أين وصلت هذه القوات.. فلم تكن هناك وسائل اتصال فهى مقطوعة والكهرباء مقطوعة، والمياه مقطوعة، وأذكر هنا أننا عرفنا أن «صاحب محل فراشة»

يملك «ماكينــة كهرباء» فذهبنا إليه فوجدنا قــد أوصل «الراديو» على ماكينته ومفتوح على «محطة القاهرة» فتجمهر الناس بالمئات يسمعون صــوت القاهرة وهو يعلن «الله أكبر» في عصر هــذا اليوم كانت المقاومة قد اشــتدت، وجعلت الناس أكثر التهابا، هذا في الوقت الذى لم نكن ندرى فيه متى نأكل بل ومن أين نأكل ؟!

□ الملاحظــة الثانيــة: أن المقاومــة بدأت تأخذ شــكلا جديدا بعد أيام قليلة، طلبنا الســماح للصيادين بصيد الســمك من بحيرة المنزلة، حيث كانت فرصة لإدخال الســلاح إلى بورســعيد، مــع عناصر جديدة للمقاومــة «أبــو نار - جــلال غريب - كمــال رفعت» وأسمــاء كثيرة لا يستطيع الإنسان نسيان دورها البطولى.

□ وأذكــر هنا كتاب قرأتــه لصحفى بلجيكــى كان مرافقا للقوات الغازيــة فى العام ١٩٥٦ قال فى مذكراتــه: «ظلت الطائرة تحوم حول موقــع الهجوم لفترة كبــيرة ووجدنا مياها من كل ناحيــة وكان هناك تــردد فى الهبوط وعاد الطيار ليغير زاويــة دورانه وإذا بنيران تخرج من الأرض وتســلط علينا من كل اتجاه ! وعندما هبطنا، كانت الخسائر فــى القوات هائلة، وفى نفس الوقت طلبت القوات البريطانية الهدنة، وكان هذا اليوم.. يوم الاثنين» !!

□ الملاحظــة الثالثــة: ذلك الالتحام التام بين الشــعب والشــرطة والقوات المســلحة، وأذكر فــى ذلك الدور الكبير الذى لعبته ســيدات بورسعيد، اللاتى أخفين الفدائيين من غدر قوات الاحتلال.

- وماذا عن ملحمة أكتوبر ؟

- الصورة متباينة بعض الشــيء، ففى عام ١٩٦٧ ضربت الســويس ومن بعدها الإسماعيلية إضافة إلى بورسعيد وإن كانت فى مواقع متطرفة وكانت الخســائر محدودة فى وابور الميــاه.. كان ذلك «٦٧ - ٦٨» وفى العام ١٩٦٩ تم تهجير المدينة «النســاء والعجائــز» وكانت أبرز مواقع التهجير فى دمياط ورأس البر والدقهلية وبقى الرجال فى حالة صمود رائع وتماسك قل أن يوجد سوى فى الملاحم، وفى عام ١٩٧٣ كان الأحرار من جنودنا البواســل بشكل لا يتصوره إنسان فى هذه الدنيا، وفى المنفذ الغربى، رأينا القوات الإسرائيلية التى ضربت كوبرى الرسوة، وقطعت مياه ترعة الإسماعيلية الموصلة لبورسعيد، وكان المواطنون يجلبون المياه بالقــوارب عبر بحيرة المنزلة، لكن اليهود لم يســتطيعوا الاقتراب من المدينة أو غزوها، بل إن قواتنا دخلت شمال سيناء.

وفــى اليوم ٦ أكتوبر واسمح لى بعودة إلى هــذا اليوم التاريخى الفذ على صعيد التاريخ العربى كله: عرفنا بالمعركة.. لكن ؟

- لكن ماذا ؟

- شعرنا بحذر غير عادى ! ! إلى أن أعلن أن قواتنا المسلحة «عبرت» ســاعتها عرفنا أن ســاعة الاقتحام قد حانت ! ! بل إنها تمت بنجاح، الأمر الذى أدركنا معه أن الجندى المصرى، قد كتب بدمه وثيقة النصر، وغسل عارا لم يرتكبه ! !

..

- أستاذ حسن: ما الملمح الإنساني لسنوات الاستنزاف الست «٦٧- ٧٣» في بورسعيد خاصة فيما يتعلق بالمواطنين العاديين ؟

- يقول: في شوارع بورسعيد، كنت من النادر أن ترى «سيدة» الجميع رجال، إما بالملابس الكاكي، وإما بالملابس المدنية، أما السيدات القليلات اللاتي كن موجودات - هنا - فكن ممرضات المستشفيات !

كنت ترى ارتباطا وحنينا شديدا بين المكان والناس ! فتجد أن المواطن البورسعيدي يحييك دون سابق معرفة، ولكن الترابط وحنين الناس مع بعضهم، كان أشد تماسكا وترابطا.. ذلك فضلا على لهفة الناس على بعضها، ويتجلى ذلك في السؤال الدائم عن الذي يتأخر عن العودة، والبحث عنه، إلى أن يتم الاطمئنان عليه .

لكن الذي لا أنساه.. يوم أن ألغيت تصاريح دخول بورسعيد في العام ١٩٧٤.. ذلك المهرجان الكبير، والتدافع الشديد من الناس للعودة، عربات تجرها الخيول تمتلئ بالناس، والأشد إنسانية ذلك الشيخ المسن الذي يقبل أرض المقابر، ويبكي فرحا لأنه سيدفن في بورسعيد.!

الفهرس

العدد القادم

التقاويم وقياس الزمن

د. أحمد عبد الهادى

اشترك فى سلسلة اقرا تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهًا.
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.
- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تســدد قيمة الاشــتراكات مقدمًا نقدًا أو بشــيكات بإدارة الاشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة